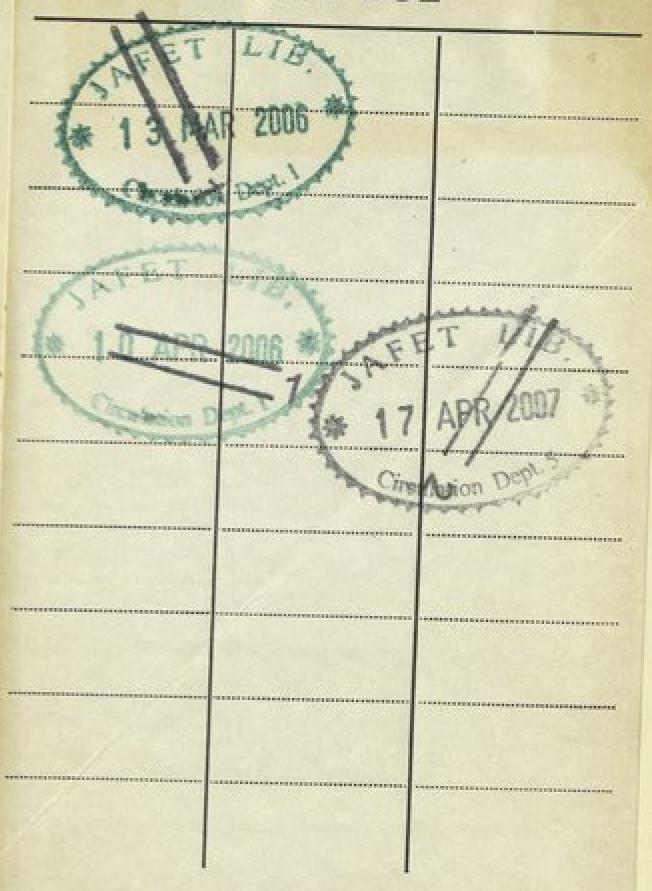
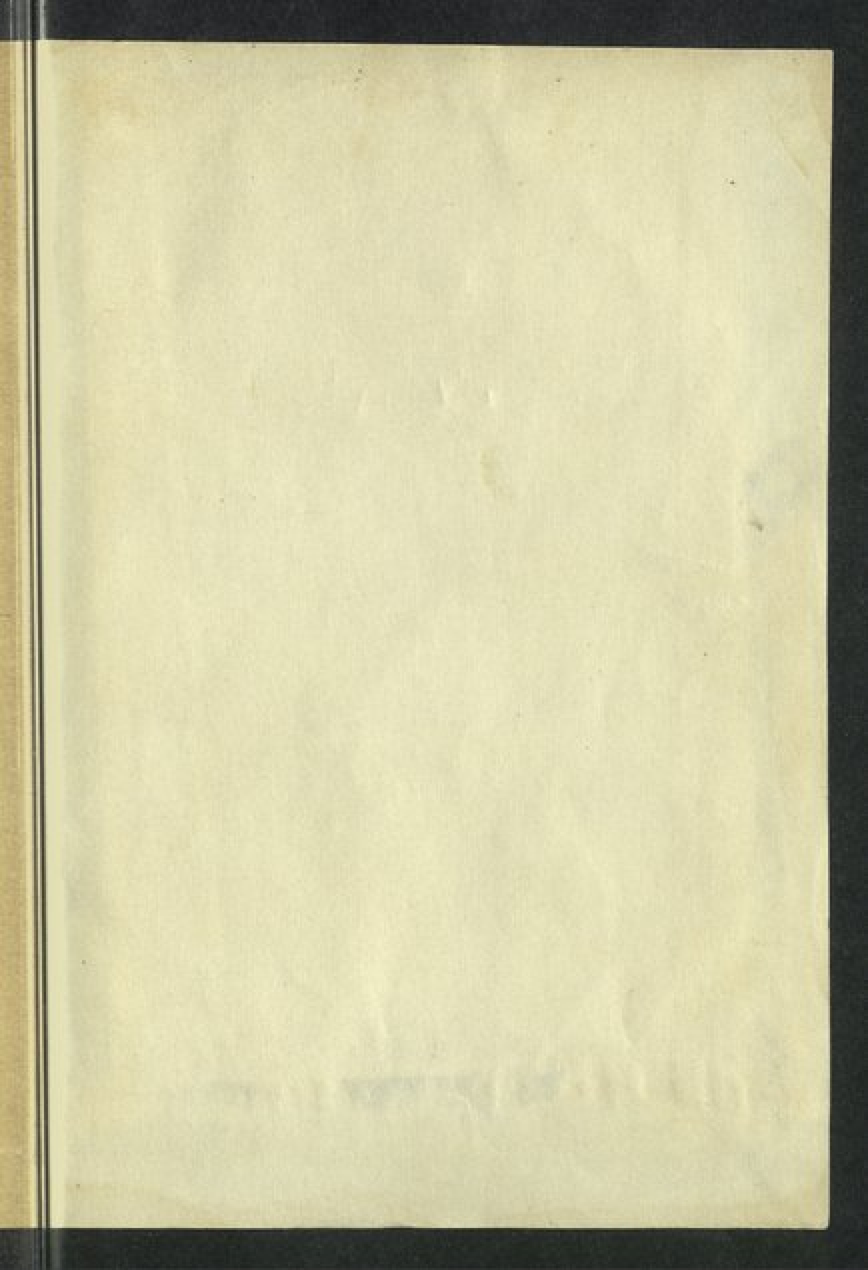
أمين

المهدي والمهدوية



DATE DUE





المهدي والمهدوية

الدكتور أحمد أمين بك

المهدي والمهدوية

اقرأ ١٠٣
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٣ — أغسطس سنة ١٩٥١



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فكرة المهدى والمهدوية لعبت دوراً كبيراً فى الإسلام من القرن الأول إلى اليوم . وسبب نجاحها يرجع إلى شيئين : الأول أن نفسية الناس تكره الظلم وتحب العدل ، سنتهم فى جميع الأزمنة والأمكنة ، فإذا لم يتحقق العدل فى زمنهم لأى سبب من الأسباب اشرأبت نفوسهم لحاكم عادل تتحقق فيه العدالة بجميع أشكالها ، فمن الناس من لجأ إلى الخيال يعيش فيه وألف فى ذلك اليوتوبيا أو المدن الفاضلة على حد تعبير الفارابى ، وخلق من خياله دنيا ونظاماً عادلا كل العدالة ، خالياً من الظلم كل الخلو ، وعاش فيه بخياله ينعم بالعدل الخيالى ، فقد روى لنا فى الشرق والغرب يوتوبيات كثيرة على نمط جمهورية أفلاطون ، ومنهم من نزع إلى الثورة يريد رفع هذه المظالم وتحقيق العدالة الاجتماعية فى الدنيا الواقعة ، فلما

عجزوا عن تحقيقها أملوها ، وإذا جاءت هذه الفكرة عن طريق الدين كان الناس لها أكثر حماسة وغيرة وأملا ، فوجدوا فى فكرة المهدى ما يحقق أملهم . ولذلك كثرت هذه الفكرة فى الأديان المختلفة من يهودية ونصرانية وإسلام ، فاعتقد اليهود رجوع إيليا واعتقد المسيحيون والمسلمون رجوع عيسى قبل يوم القيامة يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً . ولعلهم رمزوا إلى العدالة بالمسيح وإلى الظلم بالمسيح الدجال وسلطوا المسيح على المسيخ فقتله إيماء بأن العدل يسود والظلم يموت وفقاً للأمل .

والثانى أن الدنيا فى الشرق والغرب مملوءة ظلماً وذلك فى كل العصور ، وقد حاول الناس كثيراً أن يزيلوا الظلم عنهم ويعيشوا عيشة سعيدة فى جو ملىء بالعدل فلم يفلحوا ، فلما لم يفلحوا أملوا فكان من أملهم إمام عادل ، إن لم يأت اليوم فسيأتى غداً ، وسيملأ الأرض عدلا ، وستتحقق على يديه جميع الآمال .

وكانت فكرة المهدية تحقق هذين الغرضين ، وقد سادت الشرق أكثر مما سادت الغرب لأن الشرقيين أكثر أملا : وأكثر نظراً للماضى والمستقبل ، والغربيين أكثر عملا وأكثر نظراً إلى الواقع ، فهم واقعيون أكثر من الشرقيين ، ولأن الشرقيين

أميل إلى الدين ، وأكثر اعتقاداً بأن العدل لا يأتى إلا مع التدين . وفكرة المهدية فكرة دينية تتمشى مع هذه الأغراض .

أردت أن أشرح هذه الفكرة وأتتبع تاريخها من أول عهدنا بها فكان هذا الكتيب . والله نسأل أن يوفقنا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

القاهرة — يونيه سنة ١٩٥١ أحمد أمين

أول ظهور فكرة المهدية وتطورها

كلمة المهدى فى الأصل كلمة بسيطة ، وهى اسم مفعول من هدى يهدى فكل من هداه الله فهو مهدى . وقد استعملت فى هذا المعنى أيام النبى صلى الله عليه وسلم . فجاء بهذا المعنى الحديث : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . » وليس فى هذا المعنى إلا المعنى اللغوى للكلمة . وعلى هذا جاءت الكلمة فى شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول إذ يقول فى رثائه صلى الله عليه وسلم :

ما بال عينك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً ... ياخير من وطئ الحصى لاتبعد
بأبى وأمى من شهدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى

• • •

وقد مدح الفرزدق سليمان بن عبد الملك فقال :

سليمان المبارك قد علمتم ... هو المهدى قد وضح السبيل

وقال فى هشـــام بن عبد الملك :

فقلت له الخليفة غـــير شك هو المهدى والحـــكم الرشيد

وكذلك فى شعر جرير . ثم بدأت الكلمة تتحول شيئاً فشيئاً ، فخصوا اسم المهدى بعلى وحده ، وجاء فى كتاب « أسد الغابة » أنهم أطلقوا على علىّ « هادياً مهدياً ». ثم أطلقوا الكلمة على الحسين بعد مقتله ، فقالوا المهدى ابن المهدى .

ولما قتل الحسين ومات الحسن رأت طائفة أنه من الطبيعى أن يرث علياً معنوياً ابنه محمد بن الحنفية ، كما رأى غيرهم أن الوارث لعلى هما الحسن والحسين فقط ، لأنهما وحدهما أبناء علىّ من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم . أما ابن الحنفية فابن على لكن لا من فاطمة ، بل من امرأة من بنى حنيفة صلبية أو ولاء على اختلاف العلماء فى ذلك .

وكان محمد بن الحنفية هذا وهو ابن على كما ذكرنا عالماً كثير العلم روحانياً ، ورث الروحانية من أبيه ، قوى الجسم . كان يبعث به أبوه إلى القتال نيابة عنه أكثر مما يبعث الحسن والحسين ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « إن الحسن والحسين عينا على وأنا يده ، فهو يدرأ عن عينيه بيده » . ويحكون أن

ملك الروم فى عهد معاوية كتب إليه أن يختار أقوى من عنده ليصارع أقوى من عندهم ، وقال ملك الروم : « إن هذا جار بين ملوك الروم وملوك العرب من عهد بعيد » وكانت المسابقة تدور حول أطول رجل عربى وأطول رجل رومى ، ثم أقوى رجل عربى مع أقوى رجل رومى ، فاستشار معاوية عمرو ابن العاص فأشار عليه فى الطول بقيس بن سعد بن عبادة ، وفى القوة بأحد رجلين : إما عبد الله بن الزبير وإما محمد ابن الحنفية ، فاختار معاوية محمداً لأنه أقرب إلى نفسه وأكثر اطمئناناً له ، وذلك كالمسابقات التى تعمل اليوم فى الألعاب الأولمبية . وقد امتنع محمد بن الحنفية عن مبايعة عبد الله ابن الزبير وقال له : لا أبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس ، فأساء جواره وحصره وآذاه ، فاضطر أن يهرب من مكة مع بعض أصحابه .

ونشأت فرقة تسمى الكيسانية نسبة إلى كيسان يتزعمها المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وزعم هو وفرقته أن محمد بن الحنفية هو الإمام وهو المهدى ، ولكنه نقل كلمة المهدى إلى معنى آخر لزمها إلى اليوم ، وهو أن هذا المهدى لم يمت ، وإنما

هو وأصحابه يقيمون فى جبل رضوى ، وهو فى الحجاز على سبع مراحل من المدينة ، وأنه وأصحابه أحياء يرزقون ، وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء ، لأنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا .

ومن هنا لبست الكلمة معانى أخرى ، فمن جهة التصقت بالشيعة وهم الذين استخدموها على هذا المعنى فى الأيام المقبلة ، ومن جهة أخرى أضيفت إلى كلمة المهدى كلمة المنتظر فلزمتها وأصبح يقال دائماً : « المهدى المنتظر » . وكان هذا سبباً فى أن الشيعة إذا أخفوا إمامهم عن عيون الأمويين والعباسيين خوفاً من قتله لم يقولوا بموته ولكنهم كانوا يقولون عليه : « مهدى منتظر ، يرجع إذا جاء ميعاد خروجه المقدر فيخرج الناس معه ويزيل المظالم ، ويحقق العدل » .

وكان كثير عزة الشاعر المشهور يعتقد هذه العقيدة . وليس هنا كبير رابطة بين شعره الجيد فى عزة وضعف عقله فى عقيدته . فقال :

وسبط لا يذوق الموت حتى　　يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً　　برضوى عنده عسل وماء

* * *

وشاعت هذه العقيدة بين الشيعة فكانوا من حين لآخر يخرجون ثائرين يطلبون الملك باسم المهدى .

ولما تحالف العلويون والعباسيون أولا على قتال الأمويين ظهر السفاح بنظرية جديدة ، وهى أن محمد بن الحنفية بايع ابنه أبا هاشم ، وأن أبا هاشم هذا بايع السفاح ، ثم من بعده المنصور فلم يثر عليهم العلويون ، لأنهم اعتقدوا أن أمرهم هذا هين ، فإذا هم تغلبوا معهم على الأمويين ، فأمر هؤلاء العباسيين يسير ، ولكن خاب فألهم ، فما إن ولى السفاح حتى نكل بالأمويين والعلويين جميعاً ، وفاز بتأسيس الدولة العباسية ، فجاء من بعده المنصور ، واستغل شيوع كلمة المهدى عند الناس واعتقادهم فيها فلقب ابنه بالمهدى على أساس هذه الفكرة ، ودعا إليه على أنه المهدى المنتظر ليحيط الخلافة بالسلطان الدنيوى والتقديس الدينى ، وجعله ولى عهده .

وكان تأسيسه للدولة العباسية على أساس دينى بتلقيبه ابنه هذا بالمهدى وتسمية أم المهدى بأم الخلفاء ، تشبهاً باسم أم المؤمنين ، وتسميته بغداد بدار السلام تشبهاً باسم الجنة ،

وتسميته أحد قصوره بقصر الخلد ، تشبهاً باسم الجنة أيضاً ، وجعل باباً قصيراً لا يدخله إلا من انحنى كأنه راكع تعظيما له ، وتكليفه بعض الفقهاء أن يضعوا الأحاديث فى مدح العباسيين ومدح النبى ، ووصفه بصفات تنطبق على ابنه المهدى – وكان المهدى نفسه ذا « هلوسة » دينية يظهر ذلك فى كثير من تصرفاته ، وخصوصاً إمعانه الشديد فى محاربة من سماهم الزنادقة ، وتقصيهم وقتلهم وظهوره بمظهر حامى الدين والمدافع عنه ، وتسميته لولديه باسم الأنبياء موسى وهرون ، وتلقيبه موسى بالهادى ، ولما يئس من تسمية هرون بالمهدى لأنه لَقَبُهُ هو « المهدى » لقبه بالرشيد ، وهى كلمة مساوية للمهدى بمعناها الأول وهكذا . وتضخمت كلمة المهدي فى المغرب على يد البرابرة ، فقد ضاقوا ذرعاً بظلم الحكام وتعصبوا ضد عصبية غيرهم، وإن كانوا أيضاً قد تعصبوا للإسلام، وأذاقهم بنو الأغلب من العرب سوء العذاب، ففرضوا عليهم الضرائب الكثيرة التى لا قدرة لهم عليها ، حتى ضجوا بالشكوى فلم يسمع لهم فانتهز الشيعة هذا الوضع ، ودعوا للاستقلال عن الدولة العباسية ، وأذاع الشيعيون فيهم

فكرة المهدى ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر اسمه أبو عبد الله الشيعى . يدعو للمهدى المنتظر ويبث فيهم مذهب الإسماعيلية ، ويحمسهم للحرب ، فقاتلوا قتالا شديداً ، وأخيراً تغلبوا على عمال العباسيين وطاردوهم وأخضعوا أكثر بلاد المغرب لحكمهم وضربوا السكة باسمهم ، فجعلوا على أحد وجهى النقد « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » وعلى السلاح « عدة فى سبيل الله » . وسموا الخيل بعبارة « الملك لله » .

الفاطميون

وظهر عبيد الله الملقب بالمهدى المنتظر ، ثم نكل بالداعى وهو أبو عبد الله الشيعى كما نكل المنصور بأبى مسلم الخراسانى وكما نكل الرشيد بالبرامكة .

ثم أسس المهدى بلدة تسمى المهدية نسبة إليه وادعى هو وأبناؤه أنهم الخلفاء الصحيحون دون العباسيين ، وقال شاعرهم :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمى ومن به أمنت مغاربها من المقدور
يا من تخير من خيار دعاته أرجاهم للعسر والميسور

• • •

ومن نسل المهدى هذا كان المعز لدين الله الذى فتح مصر على يد جوهر الصقلى وأسس القاهرة وسماها المعزية .

وقد أقام هؤلاء الفاطميون فى مصر حضارة عظيمة ونشروا فيها التشيع وظلوا قروناً حتى أزال ملكهم صلاح الدين الأيوبى .

وانقسم المؤرخون من العرب والمستشرقين من الفرنج إلى قسمين قسم يصحح نسبتهم إلى فاطمة وعلى رأسهم ابن خلدون مدعياً أن الشكاك إنما نفوا صحة نسبتهم تملقاً للعباسيين ، وقسم يشك فى نسبهم هذا معتمداً على ما روى من بعض الأقوال.

وكانت الدولة الفاطمية مصطبغة بالصبغة اللاهوتية ، نقرأ فى ثنايا سيرة خلفائهم ما لا نجد مثله فى ثنايا سيرة الأمويين والعباسيين ، وربما كان هناك كتابان كبيران يمثلان هذه النزعة الإلهية ، الأول ديوان ابن هانئ الأندلسى ، فإنه أولا مملوء بالمصطلحات الإسماعيلية كالدعوة والداعى كقوله :

أنت الورى فاعمر حياة الورى   باسم من الدعوة مشتق

ومثل كلمة العهد والتأويل والوصى ونحو ذلك ، وفى الديوان نرى أصول الدعوة الشيعية مثل ، ضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، سواء كان ظاهراً أم مختفياً ، وأن هذا الإمام لا بد منه لحفظ الشريعة وتدبير مصالح الأمة كقوله :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها   فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تفريق اللغات لعلة   فلا بد فيها من وسيط مترجم
وآية هذا أن دحا الله أرضه   ولكنها لم ترس من غير معلم

• • •

لولاك لم يكن التفكر واعظاً والعقل رشداً والقياس دليلا
لولم تكن سكن البلاد تضعضعت وتزايلت أركانها تزييلا

• • •

ومثل الدعوة إلى أن الإمام علة وجود الدنيا ، كما يقول :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

• • •

هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الإله وغيبها المكنون
من أجل هذا قدر المقدور فى أم الكتاب وكون التكوين

• • •

وهذا الإمام جامع لجميع الفضائل والخيرات ، جسده مبرأ من كل عيب وروحه سالم من كل نقصان ، كما يقول :

فرغ الإلـه له بكل فضيلة أيام آيات الكتاب تفصل

• • •

وروح هدى فى نور جسم يمده شعاع من الأعلى الذى لم يجسم

• • •

وهذا الإمام أمين الله وهادى الخلق ووارث الأرض وشفيع الناس ، وفى ذلك يقول :

هذا أمين الله بين عباده وبلاده إن عدت الأمناء

هذا الشفيع لأمة نأتى به وجدوده لجدودها شفعاء

• • •

وهذا الإمام معصوم كالنبى لا يتصور منه أذى ولا تبدو منه زلة لأنه ملهم من الله بأعظم درجات الإلهام :

من كان سيما القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يجهل

• • •

مؤيد باختيار الله يصحبه وليس فيما أراه الله من خلل

• • •

وتجب معرفة الناس للإمام ، فجهله جريمة لا تغتفر ويروون حديثاً : « من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية » ونفوسهم لا تنجو إلا بمعرفته :

ليعرفك من أنت منجاته إذا ما اتقى الله حق التقى

• • •

فرضان من صوم وشكر خليفة هذا بهذا عندنا مقرون

• • •

لولم تكن سبب النجاة لأهلها لم يغن إيمان العباد فتيلا

• • •

وقد غلوا فى هذا الإمام غلواً كبيراً فقال ابن هانئ مثلا :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

• • •

ويقول :

لو كان علمك بالإله مقسما   فى الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـقر   آن والتوراة والإنجيلا

وأما الكتاب الثانى فرسائل إخوان الصفا فقد بنيت على أساس نظرية الفيض الإلهى وأن الله يفيض من نوره على من يشاء من عباده وأن فيضه على الأئمة أقوى فيض ، وهى النظرية التى قال بها أفلاطون وحورتها الأفلاطونية الحديثة ، وقالوا إن لهذا الفيض مظاهر دورية ظهرت فى نوح وإبرهيم وموسى وعيسى ومحمد واختتمت بالإمام — ولهم فى عدد السبعة هيام وأوهام ، وتتجلى الروح الإلهية فى درجات مختلفة ومراحل متوالية ، وتظهر للإنسانية منذ بدء خلقها متدرجة نحو الكمال ، حتى جاءت إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى يأتى المهدى برسالة تفوق من قبله حتى رسالة محمد . ويجب أن

يفسر القرآن على أن له باطناً غير الظاهر ، والظاهر إنما يصلح لقوم لم يكتمل نضجهم بعد ، إنما الخاصة هم الذين يفهمون المعنى الباطن ، حتى إن الإمام إسماعيل كان يشرب الخمر فأنكر عليه ذلك بعض أصحابه وقالوا له إن القرآن يقول بتحريم الخمر ، ففسر آية الخمر تفسيراً مجازياً ، وكذلك فعل فى الفرائض الأخرى كالصوم والحج ، وبذلك تحللوا من الشرائع الإسلامية ، وغلا كذلك إخوان الصفاء فى الحروف فزعموا أن للحروف أسراراً دالة على معان ، وأن هذه الحروف يمكن أن يفهم منها ميعاد ظهور المهدى ، واستندوا فيها على قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ومع أن الآية تدل على عدم معرفة أحد للغيب فقد قالوا إن الله تجلى بعلمه على من يشاء من عباده ، وقد روى عن الكندى الفيلسوف رسالة تتضمن دلالة الحروف وأسرار الأعداد ، وذكروا فى إخوان الصفاء أن ظهور المهدى المنتظر يتوقف على حركات النجوم وقراناتها ، مقلدين فى ذلك اليهود فى قولهم إن موعد ظهور المسيح يتبع القيمة العددية لكلمتى « هستير استير » . وقد شاع بين الباطنية وغيرهم ارتباط حركات الأرض وأحداث الكون بحركات

النجوم حتى إنه لا يحدث حدث فى الأرض إلا بقرانات فى نجوم السماء ، ووضعوا فى ذلك علماً سموه علم اليازرجة ، فما يحدث للإنسان من سعادة وشقاء وغنى وفقر فإنما مرجعه إلى حركات النجوم والقرانات .

وقال قوم معتدلون إنه لا يخفى أن للنجوم والكواكب تأثيرات فى الأرض وفى الإنسان من طريق غير مباشر ، فالشمس مثلا تؤثر فى المواسم من صيف وربيع وخريف وشتاء ، والقمر مثلا يؤثر فى حركات المد والجزر ، وهذه كلها تؤثر فى مزاج الإنسان؛ ولكن إذا أسندت هذه الأمور وتعقدت إلى قرانات فقد يحدث أن عمر الإنسان ينتهى من غير أن يحصل قران للنجوم على شكل خاص ، فكيف يمكن بناء الأحداث على الاستقراء الناقص؛ ولا يزال الناس إلى اليوم يتعلقون بهذا النحو من النجوم وتأثيرها لما ركب فى غريزتهم من حب الاستطلاع ، وهم يسندون الغنى والفقر أو السعادة والشقاء لولادة الشخص فى طالع من طوالع النجوم مع أنا نجد أشخاصاً كثيرين ولدوا فى وقت واحد وطالع واحد وبعضهم سعيد وبعضهم شقى وبعضهم فقير وبعضهم غنى ، ولكن مهما قامت

الأدلة فالنفوس البشرية هى هى ، تميل دائماً إلى حب الاستطلاع .

ومن مظاهر هذه النزعة الدينية فى الدولة الفاطمية تنظيمهم شأن الدعوة والدعاة وإعلاء شأن داعى الدعاة ، ويقول المقريزى إن الدعوة كانت مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة ، فالدعوة الأولى مبنية على إثارة المشكلات وتأويل الآيات وتعليمهم أن الدين مكتوم وأن الأكثر له منكرون وأن لا سبيل للنجاة إلا ما خص الله به الأئمة من العلم ، فإذا علم الداعى منه الإقبال والتشوق قرر له أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتت كلمتهم وأورثتهم الأهواء المضلة هى إعراض الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حفاظاً على الشرائع ؛ ولما نظر الناس فى الأمور بعقولهم واتبعوا ما حسن فى نظرهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا ضلوا السبيل إلى آخر هذه الدرجات .

ومما أثاروا من المشكلات سؤالهم مثلا : ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء قليل ولا يغتسل من البول الكثير ، وما معنى الصراط والكتبة الحافظين ، وما لنا لا نراهم ، وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب

بجلد لم يذنب ، وما إبليس والشياطين ، وما يأجوج ومأجوج ، وما شجرة الزقوم ، وما دابة الأرض ، وما الخنس الكنس ، وما معنى فواتح السور مثل الم ، المص ، إلخ ؟ . . فإذا اطمأن الداعى إلى المدعو قال له : لا تعجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ، وإن من هداه الله من اعتقد بالأئمة واستقى من علمهم ، ثم ينقله نقلة أخرى بقوله : « إن الله رتب الأئمة واحداً بعد واحد فأولهم على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين الملقب بزين العابدين ثم محمد بن على ثم جعفر الصادق » . ثم ينقله نقلة أخرى من ترتيب الأنبياء وترتيب الأئمة ورثة الأنبياء ، ثم نقلة إلى تقرير أنه لا بد لكل إمام من جماعة ينصرونه متفرقين فى جميع الأرض عددهم اثنا عشر رجلا ، ثم يتدرج بعد ذلك فى التعليم إلى الدرجة التاسعة وهى الأخيرة بأن يأخذ على الأتباع العهد بأداء الأمانة على ألا يظهروا شيئاً وأن يمنع الأئمة مما يمنع منه نفسه ، وإن خالف شيئاً من ذلك فهو برىء من الله . ويظهر أن هذه هى التعاليم الدينية ، أما التعاليم السياسية من العمل على قلب الدولة الزمنية وإقامة الثورات ووسائلها ، فقاصرة على خاصة الخاصة من الرؤساء ، وبذلك نظموا أنفسهم تنظيما

سرياً دقيقاً أشبه ما يكون بتنظيم الجمعيات السرية الخطيرة اليوم.

على كل حال كان إخوان الصفاء جمعية سرية تعمل لهدم الدولة العباسية فى الخفاء، ولهم ميول شيعية تظهر فى ثنايا الكتاب، ولهم فى ذلك أصول ومعتقدات دينية ، واشترطوا شروطاً كثيرة دقيقة للانضمام إلى العضوية ، وقد رتبت بشكل موسوعة، وعدد رسائلها اثنتان وخمسون رسالة تعالج أبحاثاً فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى وعلم الأخلاق والفلسفة ، وآخر رسالة فيها تعتبر خلاصة هذه الرسائل وقد كتبت بأسلوب راق مما يدل على رقى اللغة فى ذلك العصر وقد طوعوها للتعبير عن الفكر العربى ، وقد تأثر بها بعض التأثر الغزالى فى كتابه الإحياء ، وذكر أن المعرى كان يحضر حلقات هؤلاء العلماء لما حضر بغداد فى أيام الجمعة ، وقد ذكر أبو حيان التوحيدى أسماء واضعيها منهم أبو سليمان البستى والمقدسى وأبو الحسن على الزنجانى وزيد ابن رفاعة والقوفى؛ وكان التوحيدى هو المصدر الوحيد الذى ذكر أسماءهم فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ولذلك ظن بعضهم أنه عضو سرى معهم وقد تنكر تقية. وكان لرسائل إخوان الصفاء تأثيرات مختلفة فى القوة والضعف فى علماء الشرق والغرب على

مر الزمان ، وكل فلاسفة الإسلام الذين جاءوا بعدهم قد تأثروا بها وبنوا عليها ، وربما عد بعضهم أبا حيان التوحيدى والراوندى والمعرى من أكبر أتباعهم المتأثرين بعلمهم الناشرين لنظرياتهم حكى ذلك السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية » .

والدليل على أنها تشرح تعاليم الشيعة وعلى الأخص القرمطية أقوال كثيرة مبثوثة فى ثناياها منها ما جاء فى فصول رسائل إخوان الصفاء مثل الفصل الذى عنوانه فصل فى أن كل من أجاب الأنبياء والمرسلين والأئمة الهادين والخلفاء الراشدين الذين هم قوام الأمة منهم توابيت الحكمة ومعهم تابوت السكينة الذى تحمله الملائكة الموكلون بحفظه حتى يقوم مستحقه يتوارثه الخلف عن السلف فمن عرفهم واتبع سبيلهم فقد أخلص العبادة ونجا من الأبالسة إلخ . . . ويقولون فى فصل آخر : فصل فى معرفة الولاية الروحانية التى يكون بها الوصول إلى دار البقاء ، وفصل آخر فى معرفة الآباء والأمهات فى الولادة الروحانية . وفى كل هذه الفصول وأمثالها تنبت تعاليم الدعوة الشيعية وتعاليم الأئمة . ويرمزون أحياناً رمزاً فيقولون مثلا هذا فصل لم نفصح القول به ولا أطلقنا الكلام فيه والدلالة عليه بالتصريح الشافى لكن

بالتلويح والرمز ، وهو فصل عميق فى الرمز غامض فى الدلالة .

وربما كان أقوى من نزع نزعة لاهوتية من الفاطميين الحاكم بأمر الله ، فقد بدأ حياته مصلحاً متواضعاً يشرع للناس تشريعات معقولة ، فمثلا منع النساء من الخروج لما رأى من الفساد ، ونظم مالية البلاد والضرائب تنظيما دقيقاً بمساعدة من فى بلاطه من اليهود والنصارى ، واستقدم من البصرة الحسن ابن الهيثم الذى نقض فى كتابه « المناظر » نظرية إقليدس القائلة بأن الإبصار يكون بخروج شىء من البصر إلى المبصر ، وقد تعهد ابن الهيثم للحاكم أن يعدل فيضان النيل ، ولكنه لما أخرج نظريته إلى العمل تبين عدم إمكان تطبيقها فاختفى فراراً من الحاكم .

ورأى الناس يكثرون من شرب الخمر فحرم زرع العنب وحرم الموائد والموسيقى بل حرم الشطرنج ومجرد المشى على النيل لما رأى إفراط الناس فى الملذات ، وحرم على الناس من يصنع الأحذية للنساء حتى لايخرجن ، وأحيا الأنظمة القديمة التى توجب على أهل الذمة ألا يتزيوا بزى المسلمين . ولكن بعد ذلك غلا فى لاهوتيته فزعم أن الله تجسد فيه وأنه هو الإله وأتى فى ذلك بأعاجيب ، وكان يخرج إلى الصحراء يرصد

الكواكب ويسبح فى خيالاته اللاهوتية ، ولكنه لما اختفى فى سنة ١٠٢١ م — وربما مات مقتولا — ادعى أتباعه أنه لم يمت ولا قتل وإنما يعيش مختفياً عن الناس .

وعلى كل حال فإن الدولة الفاطمية خلفت لنا كثيراً من مظاهر الحضارة العظيمة يدل عليها الأزهر الذى لا يزال يدوى علمه إلى اليوم ، وفن العمارة ، بل صنع التماثيل وإن حرمها الإسلام ، والزخارف الكثيرة . وكانت الحقبة الفاطمية التى مرت بها مصر ذات ميول شيعية . ومع دعوتهم إلى الزهد والورع فقد ذكروا أن الخليفة المستنصر الفاطمى كان فى قصره ثلاثون ألف نفس منهم اثنا عشر ألف خادم وألف فارس وحارس ، وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أنه رأى الخليفة على بغلة وهو فتى وسيم الطلعة حليق الوجه وقد وقف بجانبه حاجب يحمل مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة ، وذكر أن الخليفة كان يملك فى العاصمة عشرين ألف بيت أكثرها مبنى باللبن فى كل بيت خمسة طوابق أو ستة وفى أسفلها حوانيت يؤجر كل حانوت منها بما بين الدينارين والعشرة ، وكان من عادته أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى موضع نزهة أنشأه ، وربما

خرج كما يخرج أغنياء الحجاج فى يوم حجهم ،وربما خرج ومعه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء فى طريق مكة ، وذكر المقريزى فى خططه كشفاً بأسماء كنوز المستنصر تستدعى العجب ؛ وهكذا يفعل الأئمة المعصومون الزاهدون المتورعون الذين خلقت الناس لأجلهم ولا يهتدى هادٍ إلا بهداهم ! !

وكان من نفحات الفاطميين سيف الدولة الحمدانى فقد كان أيضاً شيعياً ، وقد اشتهر بنصرته للعلم والأدب وكان فى بلاطه الفارابى الفيلسوف الكبير الذى اشتهر بالرياضيات والطب ولكن تآليفه فيهما تدل على أنه وصل فيهما إلى درجة متوسطة ، وإنما كان ممتازاً فى علمى التنجيم والموسيقى وقد ألف فى الموسيقى هذه كتابين من كتبه ، ثم كتب فيها أيضاً ثلاثة كتب أخرى أهمها كتاب الموسيقى الكبير ، وقد ذكر عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة فأخرج عيداناً وقع عليها فضحك كل من كان فى المجلس ثم وقع عليها لحناً آخر فبكى كل منهم ثم غير ترتيبها ووقع عليها لحناً ثالثاً فناموا كلهم حتى البواب ، ولا يزال بعض المواوية ينشدون بعض الألحان المنسوبة إليه ،ويرى ابن خلكان أنه أكبر فلاسفة المسلمين ولم

يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع وبهديه سار وصنف .

وكان خازن كتب سيف الدولة الخالديين وشاعره المتنبى ، ويظهر أن المتنبى أيضاً كان شيعياً بل كان قرمطياً كما سيأتى ، وكان نفوذ العلويين وتعاليمهم واسعاً كبيراً ومن أثر هذا النفوذ ما كان من المناقشة والجدل بين داعى الدعاة الفاطمى وأبى العلاء المعرى مما يطول شرحه ، وقد سمى الغزالى مذهبهم « التعليمى » وذكرهم عند ما اضطر إلى معرفة الحق هل هو عند الفقهاء أو الفلاسفة أو التعليميين ، ويقصد بالتعليميين هؤلاء الشيعة ، ثم لم يعجبه شىء من ذلك وأخيراً تصوف ورد على الشيعة ، ومعنى التعليمية الذين يعتمدون اعتماداً مطلقاً على سلطة الإمام وأنه مصدر التعليم والإرشاد وهو المهدى .

على كل حال تأسست هذه الدولة اعتماداً على فكرة المهدية وكانت بلادهم أقوى مركز للتشيع ، وقد كان تشيعهم هذا أمتن رباط بينهم وبين الفرس أيدوهم بحكم تشيعهم أيضاً ، وأيدوهم لأنهم ينتسبون إلى فاطمة وإلى على. فأما عطفهم على على فلأنه فيما يقول المؤرخون زوج ابنه الحسين من ابنة يزدجرد

ملك الفرس ، فبين أولاده وبينهم نسب مشيج فنصفهم فارسى — وأما رضاهم عن أولاد فاطمة فلأنهم تعودوا من زمن الأكاسرة أن يؤمنوا بنظرية التفويض الإلهى وأن الخلفاء فيهم قبس من الله ينتقل من أب إلى ابن . وهذا عكس الفكرة العربية التى تؤمن بالشورى وحكم أهل الحل والعقد فيمن يتولى الخلافة حسب المصالح ، لأنها فكرة تتفق وديموقراطية العرب .

ولم تقف فكرة المهدى عند هذا الحد ، بل لعبت بعد ذلك أدواراً كثيرة .

فإن نحن قلنا إن كل الحضارة الفاطمية والعلم الفاطمى والقاهرة الفاطمية نتاج غير مباشر لفكرة المهدى لم نبعد . وقد كان لنجاح الفاطميين تحقيق مادى لفكرة المهدى المعنوية أطمع غيرهم فيها وكان أكثر الناس طمعاً هم الشيعة . وقد انتشرت على مر الزمان الأحاديث التى تؤيد فكرة المهدى والتى تفيد أنه يملك الدنيا بأجمعها شرقها وغربها كما ملكها سليمان عليه السلام وذو القرنين وأنه ينزل عيسى عليه السلام فى مدة المهدى ويقتدى عيسى به فى صلاة واحدة وهى صلاة الصبح فى بيت المقدس .

وقد أنشأ الشيعيون القصائد فى مدح هذا المهدى وسموه صاحب الزمان وكان ممن مدحه بهاء الدين العاملى فقال فيه قصيدة مطلعها :

سرى البرق من نجد فجدد تذكارى
عهوداً بحزوى والعذيب وذى قار

ويقول فيها :

هو العروة الوثقى الذى من بذيله	تمسك لا يخشى عظائم أوزار
إمام هدى لاذ الزمان بظله	وألقى إليه الدهر مقود خوار
ومقتدر لو كلف الصم نطقها	بأجذارها فاهت إليه بأجذار
علوم الورى فى جنب أبحر علمه	كنقرة كف أو كغمسة منقار
فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه	ولم يعشه عنها سواطع أنوار
رأى حكمة قدسية لا يشوبها	شوائب أنظار وأدناس أفكار ..
بإشراقها كل العوالم أشرقت	لما لاح فى الكونين من نورها السارى

...... إلخ

وقد شرح القصيدة فى آخر كتابه الكشكول .

• • •

وقد أحاطوا الفكرة بفكرة أخرى وهى فكرة قدرة المهدى على الإخبار بالغيب والتنبؤ بالأحداث، وهذا باب عظيم من

أبواب الشيعة فهم يزعمون أن الإمام علياً ترك كتاباً صغيراً فيه ما كان وما يكون — وأن الأئمة من بعده اعتمدوا عليه وسموه «الجفر» والجفر «ما بلغ من الإبل أربعة أشهر، الذكر جفر والأنثى جفرة وهو الذى حرفناه إلى الشفرة ومعناه الجلد الصغير» وكانت العادة فى أيامهم أن يكتبوا على الجلد فسموا الكتاب جفراً — وأحياناً يسمونه «جفر المسك» والمسك هو الجلد. وللشيعة فى ذلك أخبار طوال فقد ادعوا أن فيه أسماء من يلى الأمور وما ينالهم من أحداث وأحياناً يذكرون ملحمة من الملاحم فيها أخبار الدنيا وأحياناً أخبار دولة من الدول يذكرون فيه ما حدث فى الماضى وهو صحيح عادة وما سيحدث فى المستقبل وهو غيب مجهول وسيأتى بعض أمثلة على استخدامهم هذا الجفر لإيهام الناس بغلبتهم حتى ينضموا إليهم.

فلما نجح الفاطميون فى تأسيس دولتهم شجع هذا النجاح غيرهم على أن يقلدوهم كلما أرادوا ثورة وأحسوا مظلمة. وكان انتشار المهدية فى بلاد المغرب أكثر منها فى بلاد الشرق لأسباب: منها أن المهرة المكرة أشاعوا حديثاً يومئ إلى أن المهدى المنتظر مراكشى، ومنها أن المغاربة معروفون من قديم من أيام

الكاهنة بالميل إلى الغيبيات والتأثر بها .

ومن فضل الشيعة أنهم كانوا فى بعض مواقفهم وفى اعتقادهم بالأئمة المهتدين يؤيدون الدين ويردون على الذين يعتقدون بسلطان العقل وحده ، ومن الأمثلة على ذلك ما كان من المناظرات بين أبي حاتم الرازى وأبى بكر الرازى ، فأبو حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٢ كان من كبار دعاة الإسماعيلية واشهر بدعوته إلى المذهب الفاطمي ولعب دوراً عظيما فى الشؤون السياسية وفى أذربيجان وفى الديلم حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة ، فقد رد على أبي بكر الرازى وكان ملحداً يؤمن بسلطان العقل وحده وينكر النبوة ، فرد عليه أبو حاتم الرازى فى جملة مناظرات فى نقد كلامه وإثبات الأدلة على النبوة ، فالظاهر أنه كان هناك دعوة إلحادية تنكر النبوة ومن أتباعها الرازى هذا صاحب كتاب الطب الروحانى وغيره من رسائل ، وربما كان من معتنق هذا المذهب أيضاً ابن الراوندى وغيره ، وقامت طائفة تؤلف كثيراً فى دلائل النبوة رداً عليه فكان الشيعيون من الذين يؤيدون نظرية الدين وقد يبالغون فيها بدعواهم الأئمة وعصمتهم ، وربما كان أيضاً جهر المعرى بسلطان العقل فى كثير من شعر

اللزوميات تبعاً لأمثال محمد بن زكريا الرازى دعاه إلى ذلك مغالاة الشيعة فى دعوة الأئمة فكان أمامه مناظرات أبى حاتم الرازى مع أبى بكر الرازى ،وهذه المناظرات منشورة فى الرسائل الفلسفية التى جمعها الأستاذ كراوس ومما ذكره أبو حاتم الرازى فى أول المناظرات قوله :

« فما جرى بينى وبين الملحد أنه ناظرنى فى أمر النبوة فقال : « من أين أوجبتم أن الله اختص قوماً بالنبوة دون قوم وفضلهم على الناس وجعلهم أذلة لهم وأحوج الناس إليهم ، ومن أين أجزتم فى حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويؤكد بينهم العداوات ويكبر المحاربات ويهلك بذلك الناس، فرد عليه بأن الحكيم فعل ذلك رحمة بالناس، فالناس مع اختلاف عقولهم لا يمكن أن يستغنوا عمن يرشدهم ويهديهم من الأنبياء والأئمة والعلماء إلخ . . . » فنرى من هذا أنه كان هناك حركة عنيفة بين الملحدين الذين ينكرون النبوة ، والمؤمنين الذين يعتقدون بها؛ ومن فضل الشيعة أنهم كانوا مؤمنين يدافعون عن الإسلام فى الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم وفى الداخل بصد من أنكروا الدين وجحدوا النبوة .

الموحدون

وكان من أكبر الدول التى نجحت باسم المهدى أيضاً فى المغرب دولة الموحدين وزعيمهم محمد بن تومرت وهو شيعى أيضاً من نسل على بن أبى طالب وقد رحل إلى المشرق وتلقى علومه بالعراق ولقى هناك الغزالى والكيا الهراسى والطرطوشى وغيرهم وأخذ عنهم الحديث وأصول الفقه والدين . والحق أنه كان ورعاً ناسكاً متمسكاً بالدين شديد الغيرة عليه منكراً للخارجين على الدين فى شدة وحماسة ، لذلك كان فى كل بلدة يحل بها تؤخذ عليه هذه الشدة ويتعرض للأذى ويتحمله فى صبر . كان ذلك فى مكة وفى مصر حتى طردوه منها فخرج إلى المغرب ولم يدع هذه الشدة حتى وهو فى السفينة فألزم أهلها بإقامة الصلاة فى أوقاتها وقراءة أحزاب من القرآن ثم نزل بلدة « المهدية » حيث يقيم حزبه الشيعى ونزل فى مسجد مغلق على الطريق فكان ينظر من النافذة فإذا رأى منكراً بين المارة

نهى عنه . وادعى أن عنده نسخة من كتاب « الجفر » وأن رجلا سيظهر فى بلد حروفه « ت . ى ، ن . م . ل » (تينمل) وأن أكبر أصحابه رجل اسمه ع . ب . د . ا . ل . م . و . م . ن » (عبد المؤمن) وأن أوانه قد أزف وكان من مكره أنه لقى رجلا قديراً اسمه عبد الله الونشريشى وكان عالماً فصيحاً باللغة العربية والبربرية فصحبه وأوعز إليه ابن تومرت أن يتغابى ويتجاهل حتى إذا جاء الوقت أوعز إليه بالفصاحة والعلم وادعى شيخه أن هذه إحدى معجزاته . . . فكان ذلك . . . وصحبه . . . وذهب إلى أقصى المغرب وتحدث فى تغيير الدولة مع خاصته ؛ فنصح الملك وزيره بأن يحتاط للأمر قبل استفحاله وأن لا يستكثر اليوم ما ينفق لأنه إن أبطأ لم تقاومه الأموال كلها ، وأنكر ابن تومرت على الملك أن الخمرة تباع جهاراً وتمشى الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى فنصحه أصحابه بالالتجاء إلى جبل فى بلدة قريبة فسألهم عن اسمها فقالوا الاسم الذى رآه فى الجفر ؛ وما زال يبث فى أهل الجبل الخروج والتسلح حتى آمنوا به واستطاع أن يجهز جيشاً عدده عشرة آلاف رجل مزودين بالسلاح وقد

كسر أصحابه أول الأمر كسرة مشينة فطيب خاطرهم وقال لهم : إن الحرب سجال ورسول الله كان ينتصر وينهزم وأن العاقبة للمتقين ثم أعادوا الكرة فانتصروا .

وكان من ألاعيبه أن استنطق رجلا من أهل الجبل فسأله : عرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟ فقال له أما أنت فإنك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ، ثم عرض أصحابه على هذا الرجل وطلب إليه أن يميز أهل الجنة من أهل النار وكان قد اتفق معه على أن يجعل أعداءه من أهل النار فيتخلص منهم . . .

على كل حال مات هذا المهدى قبل أن ينتصر وخلفه عبد المؤمن وكان أحسن حظاً من شيخه، فتح كثيراً من بلاد المغرب والأندلس، وكان من نتيجة ذلك دولة الموحدين المشهورين فى تاريخ الأندلس ، فكانت هذه مملكة عظمى من بركات المهدى المنتظر، تشمل المغرب كله إلى حدود مصر والأندلس، وكانت أيضاً دولة شيعية عظيمة تستند على فكرة المهدى . . . ولكن والحق يقال إن التشيع دائماً ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون . ولعل ذلك لفكرة أن التشيع مبنى على تأويل

الظاهر إلى معان باطنة . وعلى إدراك معان عميقة بنيت عليها الدعوة الشيعية . فالفلسفة أنسب لها . فالحضارة العظيمة والفلسفة العميقة التى أينعت فى العهد الفاطمى والشيعى ومنها رسائل إخوان الصفاء ونحوها فى المشرق كانت نتاج التشيع .

وكذلك فى عهد الموحدين أينع الفيلسوفان العظيمان ابن طفيل وابن رشد . فقد حلت الفلسفة فى الأندلس . وكانت من قبل ذلك محرمة أما ابن طفيل فكان صبياً فى غرناطة . ثم عين سكرتيراً لعامل غرناطة قبل الموحدين ، وهو الذى أخرج القصة البديعة المشهورة المسماة « حى بن يقظان » وخلاصتها أن حياً هذا ولد يتيما فى جزيرة خالية من الناس ولكنه منح عقلا فاحصاً فاتصل بالطبيعة وأخذ يفهمها شيئاً فشيئاً من غير تعليم. وقد استطاع بعقله وحده أن يفهم من الطبيعة أسرارها وأنه لا يمكن أن تكون من غير صانع فلا بد أن يكون هناك إله ذو صفات خاصة ينظمها ويدبرها ثم التقى فى إحدى الجزر برجل مؤمن تعلم على أحد الصالحين علم الأنبياء فرأى حى أن تعاليمه التى اهتدى إليها بفكرته وطبيعته تتفق وتعاليم هذا الرجل الذى تعلم عن طريق الدين . وخلاصة ذلك أن

نتيجة كل من الشرع والعقل واحدة . وأن الشرع لا ينافى العقل . ويتخلل القصة نظرات كثيرة دقيقة صائبة . وقد نقل الكتاب إلى العبرية بعد مائتى عام من ظهوره . ثم نقل إلى أكثر اللغات الغربية ، وخلفه بعد ذلك فى منصبه كطبيب ابن رشد الفيلسوف الشهير . ولكن قوله بقدم العالم كرأى أرسطو أقام عليه الفقهاء فحماه أمير المؤمنين بادئ الأمر ولكنه اضطر أن يتخلى عنه أخيراً إرضاء للرأى العام فنفاه بعد أن امتحنه محنة مؤلمة ، وأحرق مؤلفاته ما عدا كتبه الطبية والرياضية . ولكن ابن رشد سرعان ما توفى .

على كل حال كانت دولة الفاطميين ودولة الموحدين دولتين شيعيتين تدينان بفكرة المهدى ، وتعاقبت بعد ذلك على مدى الأزمان فكرة المهدى هذا تظهر من حين إلى حين .

ومن غريب الأمر أن المنصور بن أبى عامر الحاجب لما تغلب على الأمويين وحل محلهم حكم البلاد حكماً طيباً وقاتل أعداء الإسلام قتالا شديداً . . .

ولما مات خلفه ابناه أحدهما اسمه عبد الرحمن فتلقب بالمهدى ولكن خرج عليه محمد بن هشام الأموى وتلقب بالمهدى أيضاً

فكان مهدى يحارب مهدياً ، وقد أسرف محمد بن هشام هذا فى قتل الخصوم حتى اتخذ من رؤوسهم أصصاً يغرس فيها النباتات على اختلافها ، وكان يعتق النبيذ فى قصره ، ويشربه حتى سموه نباذاً .

ولما ذهب الموحدون والمرابطون وانتصر الأسبانيون على المسلمين ولم يبق للمسلمين إلا بقعة صغيرة فى الأندلس وكان ملوك بنى الأحمر يتطلعون إلى مهدى منتظر يقويهم على الأسبان ويطردهم منها لما عجزوا أنفسهم عن طردهم .

وبتوالى الأزمان كثرت الأحاديث عن المهدية والمهدى . ومن قديم رأى الناس نجاح هذه الفكرة . فالأمويون اخترعوا مهدياً اسمه السفيانى ،وقال صاحب الأغانى « إن خالد بن يزيد بن معاوية زاد فى أخبار السفيانى وكبره » وكان فيه معنى المهدى المنتظر ، وبقيت هذه العقيدة فى السفيانى إلى الدولة العباسية . والعباسيون أحيوا فكرة المهدى أيضاً ولكن جعلوها فى البيت العباسى لا العلوى .

فتلقب الخليفة المهدى بهذا اللقب لهذا الغرض . أما الشيعة فقد اعتنقوا أيضاً هذه الفكرة وقصروها على البيت العلوى .

وكانت هذه العقيدة أساساً من أسس الشيعة لا يتم التشيع إلا بها . أما عند أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً ولكن لا بهذه القوة التى عند الشيعة . ووضع كل الأحاديث فى تأييد المهدى المنتظر . ومما يشهد بالفخار للبخارى ومسلم أنهما لم تتسرب إليهما هذه الأحاديث . وإن تسربت إلى غيرهما من الكتب التى لم تبلغ صحتهما . وذلك مثل ما وضع تملقاً للدولة العباسية أن المهدى يخرج هو وأصحابه من خراسان حاملين الرايات السود وهذا ينطبق على العباسيين دون غيرهم ، وفى كل زمان يظهر مهدى تظهر أحاديث جديدة تنطبق على هؤلاء الثائرين . وقد أحصى ابن حجر الأحاديث المروية فى المهدى فوجدها نحو الخمسين وقال إنها لم تثبت صحتها عنده .

• • •

وكما لعبت فكرة المهدى والتشيع فى الغرب لعبت كذلك مثلها أو أكثر منها فى الشرق . فكل حين نرى ثورة عظيمة شبت ودامت سنين ، من ذلك ثورة الزنج فى العراق . نشأت من ظلم الحكام والطموح إلى العدل . وقد ظهرت هذه الثورة على يد العبيد فى البصرة وأصلهم من زنوج أفريقيا . كانوا

يعملون لمتعهد بالسباخ قرب البصرة وكان هذا السباخ أكواماً عظيمة . فظهر رجل فارسى اسمه على وقد نجح فى بيان الظلم الواقع على هؤلاء العمال ، وأبان لهم أن مصيبتهم ناشئة من الولاة العباسيين . فوعدهم بأنهم إذا ثاروا أزالوا الظلم وتحقق العدل ووعدهم بتحسين حالهم وضمان حريتهم ، وترف عيشهم . فثاروا واستولوا على البصرة وضواحيها وبنى بلدة جديدة باللبن وسماها المختارة . . . ولعله اختار هذا الاسم إيماء إلى المختار الثقفى الذى اخترع فكرة المهدى الجديدة . وانضم البدو الذين كانوا مجاورين للزنوج إليهم ، وقد نهبوا البصرة وهجموا على المسلمين أثناء صلاة الجمعة وقتلوا ممن فى المسجد ومن أهل البصرة نحو ثلاثمائة ألف ، وانتدب الخليفة العباسى أخاه الموفق لتهدئة هذه الثورة التى دامت سنين وجعلت البلاد فى خطر .

القرامطة

ولم تكن ثورة القرامطة بأقل من هذه شأناً . وهى أيضاً فتنة شيعية مهدوية . فقد رأينا على حين غفلة أن قد شاع فى الناس أن العالم الإسلامى غارق فى الجهل والظلم وأن لا سبيل إلى الخلاص من هذه المظالم إلا بمهدى يملأ الأرض عدلا ورحمة ، فظهرت فرقة القرامطة فى العراق وعلى رأسها رجل يسمى حمدان قرمط ، ويقال إن معنى قرمط باللسان الآرامى « المعلم السرى » والعرب يقولون إنها مشتقة من القرمط بمعنى القصير . وإليه تنسب الفرقة وقد ظهرت فى العراق أول الأمر . وبنى حمدان هذا داراً تسمى دار الهجرة تمثلا بالنبى صلى الله عليه وسلم . وكان يدعو إلى الاشتراكية أعنى المساواة فى الأموال ويقيم أصحابه بعضهم لبعض موائد تسمى « البلغة » ولذلك يطلق عليهم الفرنج شيعيى العرب ، ووضعوا كتباً فى معتقدهم الدينى لتعليم المريد . وكان للقرامطة تعاليم دينية

مؤسسة على الاتصال بالله والوحى الخفى إلى زعمائهم، وكان من أفخمهم شخصيتان كبيرتان كان لهما أثر كبير فى الإسلام .

« الأول الحسين بن منصور الحلاج » وهو فارسى الأصل وقد نشأ بواسط وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره ، وقال بوحدة الوجود ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاح الصوفية وإشاراتهم .

أرسلت تسأل عنى كيف كنت وما
لاقيت بعدك من هم ومن حزن
لا كنت إن كنت أدرى كيف كنت ولا
كنت إن كنت أدرى كيف لم أكن

وهو من أصل مجوسى ، وقد جرى منه كلام نحو ذلك أنكره عليه الفقهاء فقال الحلاج « ظهرى حمى ودمى حرام وما يحل لكم أن تتقولوا على » وقد حرر الفقهاء محضراً وقعوا عليه بحل قتله ورفع إلى الخليفة المقتدر بالله ، فوقع عليه ، إذا القضاة كانوا قد أفتوا بقتله ، فليسلم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط فإن مات من الضرب وإلا ضرب ألف سوط أخرى ثم يضرب عنقه. وقال لصاحب الشرطة إن قال لك: أنا أجرى الفرات ودجلة ذهباً وفضة ، فلا تقبل ذلك منه

ولا ترفع العقوبة عنه ، فنفذوا فيه ذلك ونصبوا رأسه على الجسر ببغداد ، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً ، وقد اختلف فيه الناس فمنهم من يبالغ فى تعظيمه ومنهم من يكفره ، وقد دافع عنه الإمام الغزالى فى كتابه الأنوار وقال إنه قال ما قال من فرط محبته وشدة وجده ، ذكر بعضهم أنه هو والجنابى وابن المقفع تواصوا على قلب الدولة والتعرض لإفساد المملكة واستعطاف القلوب واستمالتها إليهم . وارتاد كل واحد منهم قطراً ، فأما الجنابى وهو داع من أكبر دعاة القرامطة فذهب إلى الأحساء وأما ابن المقفع فسار إلى تخوم الأتراك وأما الحلاج فذهب إلى بغداد ، وقد نقد ابن خلكان هذا الخبر لأن ابن المقفع لا يتفق تاريخه وتاريخهما ، ورجح أن يكون الرجل الثالث هو أبو جعفر محمد بن على الشلغمانى — مع فرق الكتابة بين اللفظين — فقد أحدث مذهباً غالياً فى التشيع والتناسخ وحلول الله فى الجسد على نحو ما فعل الحلاج ، وقد ذهب إلى بغداد وادعى فيها الربوبية فقبض عليه الوزير ابن مقلة وادعى عليه أنه يقول إنه « الباب إلى الإمام المنتظر وعرض أمره على الفقهاء فأفتوا بإباحة دمه فأحرق بالنار

سنة ٣٢٢ هـ. وشلمغان قرية بنواحى واسط ؛ ويلاحظ هنا أنه استعمل كلمة الباب يقصد بذلك المدخل إلى المهدى وهو اللفظ الذى استعمله البابية فيما بعد .

وعلى الجملة فقد قتل الحلاج بحكم الفقهاء، والذى يلاحظ فى هذا العصر والذى قبله الخلاف الشديد بين الفقهاء والمتصوفة فالمتصوفة يرمون الفقهاء بأنهم ظاهريون يتبعون الأشكال ويحافظون على الشعائر التى تقام بواسطة الجوارح من غير نظر إلى روحها ولذلك يفصلون القول فى كيفية الوضوء وكيفية الصلاة وما إلى ذلك ، والفقهاء يرمون المتصوفة بأنهم توسعوا فى أمور الدين وأفرطوا فى المعانى والشطحات وما إلى ذلك وجرت على ألسنتهم عبارات تناقض الدين . وربما كان أول من وفق بين الفقهاء والصوفية القشيرى فى رسالته ثم الغزالى لأنه كان فقيهاً كبيراً ومتصوفاً كبيراً معاً، وبعد ذلك سموا الفقه شريعة والتصوف حقيقة ومدحوا من جمع بين الشريعة والحقيقة ونقدوا من تمسك بالشريعة دون الحقيقة أو بالحقيقة دون الشريعة، وعلى الجملة فقد كان الحلاج أثراً من آثار القرامطة .

والاقتصاديون يعتبرون القرمطة حركة اقتصادية كبيرة

ثارت على الظلم الذى ساد المجتمع فى العصر العباسى فجعل بعض الناس يعيشون عيشة بذخ وترف ، وبعض الناس يعيشون عيشة بؤس وفقر ، وقد حكى أن قريباً لهارون الرشيد كان دخله اليومى مائة ألف درهم فتعلق به رجل فقير وقال : هل من العدل أن تغل مائة ألف درهم فى اليوم وأنا لا أستطيع أن أحصل على نصف درهم فى اليوم ،وقد حكى لنا الخطيب البغدادى ما خلفه بعض الأغنياء من ثروة فكان مبلغاً يعجز عنه الوصف كما يحكى غيره عن آخرين كانوا علماء فضلاء لا يجدون قوت يومهم كالذى يحكى عن الخطيب التبريزى أنه كان يرحل من بلدة إلى أخرى ماشياً يحمل على ظهره خرجاً فيه كتب حتى لتتلف بعض كتبه من العرق الذى يخرج منه وكالذى نقرؤ فى كتاب الفلاكة والمفلوكين من فقر مدقع مع علم واسع وأخلاق فاضلة .

وأيا ما كانت حركة القرامطة فقد كان مبعثها هذه الفروق بين الناس ، ولكنها لم تكن اشتراكية كالتى وضعها كارل ماركس لكنها كانت دعوة إلى الإصلاح المادى عن طريق روحانى من إيمان بالإمام وإيمان بالمهدى المنتظر لأن الناس إذ ذاك

كانوا لا يخلصون للثورة ولا يؤمنون بإصلاح إلا ما كان من قبل الدين ، والذين يدعون إلى الهدوء كانوا يدعون أيضاً من طريق الدين ، فالله قسم الأرزاق وكتب فى الأزل على الغنى أنه غنى وعلى الفقير أنه فقير ، فكما أن نتيجة هذه التعاليم تدعو إلى الهدوء والطمأنينة وحمد الله على الفقر كحمده على الغنى والقناعة بما قسم الله والرضى بالقليل مع الشكر ، فكذلك الأخرى تدعو إلى الثورة وإصلاح الحال ؛ وهذه الثورات على الدولة العباسية لنظامها الفاسد وإنتاجه الغنى الكبير والفقر الكبير تدعو كلها إلى تحقيق العدالة عن طريق المهدى المنتظر ونجدها كلها تنتقد هذه الأحوال فنجدها فى ثورة الزنج وثورة القرامطة وثورة الحشاشين وما إلى ذلك .

ومن الغريب أننا لا نجد فى التاريخ الإسلامى قيام مصلح دنيوى يرجع إلى العقل فيطالب بإصلاح الفاسد والعدالة فى توزيع الثروة ، وذلك لأن الرأى العام فى تلك العصور كان متأثراً بالدين أثراً كبيراً فهو لا يخضع لدولة إلا إذا مزجت بالدين وهذا ما لاحظه ابن خلدون فى العرب إذ قال « إنهم لا يخضعون ولا يقادون إلا لرسالة دينية أو نحوها ، وكان

كالعرب الأمم الأخرى التى خضعت لحكمهم وآمنت بتقاليدهم وسارت على منوالهم .

والشخصية الثانية : من أثر القرامطة أبو الطيب المتنبى فقد كان متأثراً بآثارهم وولد فى ظلهم وتحت سلطانهم ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً يوم ثار القرامطة وقد اصطبغ بصبغتهم وتعلم علمهم . فقد حدثونا أنه تعلم أول أمره فى مكتب من مكاتب العلويين ولا شك أنه تلقى فى هذا المكتب تعاليم الشيعة أول ما تعلم ومن هؤلاء الشيعة كانت القرامطة ، ثم خرج إلى البادية . ونظن أنه اتصل بداع من دعاة العلويين وأكمل عليه تعاليمه وهذا كله يفسر النزعة السفاحة التى عند المتنبى حتى من صغره . فهو يقول فى مطلع شعره :

لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يعلها من كل داف السبال

ثم هو إذا شدا وقعت فى قصائده هذه النزعة الروحية التى كان يقول بها الشيعة فمثلا يقول :

يا أيها الملك المصفى جوهراً ... من ذات الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوته ... فتكاد تعلم علم ما لم تعلما

ويهم فيك إذا نطقت فصاحة　　من كل عضو منك أن يتكلما
أنا مبصر وأظن أنى نــائم　　من كان يحلم بالإله فاحلما
كبر العيان على حتى إنــه　　صار اليقين من العيان توهما

فهى من نوع غير المعروف عند الشعراء الآخرين .

وهذا يفسر أيضاً هلوسة المتنبى فى دعواه النبوة ، ومن أجل ذلك سمى بالمتنبى ، وطموحه طول عمره إلى أن ينال ولاية أو ملكاً وغضبه على كافور إذ لم ينله ولاية ، ونظن أنه لو نالها لقرمطها وقلبها ولاية شيعية حسب تعاليمه ، ونرى ديوانه مملوءاً بالقوة والدعوة إلى الثورة والاعتداد بالشجاعة وهذا هو السبب فى أنه فضل سيف الدولة ابن حمدان على كافور الأخشيدى لأن الأول بطل فى الحروب الداخلية مع الأعراب والخارجية مع الصليبيين ، بل كان المتنبى نفسه يخرج مع سيف الدولة محارباً وأما كافور الأخشيدى فقد عرف بالسياسة والمكر والدهاء لا بالفتك فى الحروب ، ولذلك أيضاً كان أحب شخص إليه لما جاء مصر فاتكاً الرومى لشجاعته النادرة ، حتى سموه مجنوناً ، وقد بكى عليه كثيراً ورثاه فى ديوانه فى ثلاث قصائد مما لم يفعل مع غيره ، وقد أعلى شأنه بمقدار ما حط من شأن كافور .

ويستطيع القارئ الدقيق لديوانه بعد هذه النظرة أن يرى فيه تشيعاً كثيراً وقرمطة كثيرة مثل :

يا عاذل العــاشقين دع فئة — أضلها الله كيف ترشدها

ليس يحيق المــلام فى همم — أقربها منــك عنك أبعدها

إلى غير ذلك ، كما يفسر أيضاً نقمته على العالم العربى وحكمه بغير عربى ولعل متمناه أن يكون عربياً شيعياً يطبق تعاليم القرامطة ، وأنه يبكى الشام ويبكى مصر ويبكى سوء النظام الاجتماعى الشامل ويطمح إلى تغييره ، إلى كثير من أمثال ذلك ، فكل هذا الاضطراب والحيرة والبكاء والعويل والنقمة من المتنبى على المعاصرين من غير اليشعية أثر قرمطى واضح . وساعده على ذلك خدمته الطويلة لسيف الدولة الشيعى أيضاً المتصل اتصالا وثيقاً بالشيعيين ومذهبهم .

الحشاشون

ومن هذه الفرق التى كانت مؤسسة على التشيع والاعتقاد بالمهدية فرقة الحشاشين ويسمون أحياناً بالإسماعيلية وأحياناً بالديلمية وزعيمهم الحسن بن الصباح المشهور ، وسموا بالحشاشين لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش ، وقد شاع استعمال المكيفات لديهم ولدى الصوفية كما استعملوا القهوة للتنبه للعبادة كما يقولون ، وكان الحشيش يخدم أغراض هؤلاء الإسماعيلية لأنه يخدر أعصابهم ويزيد أحلامهم اللذيذة فيكونون أطوع فى تنفيذ الأوامر التى تصدر لهم ، وقد حكى الرحالة ماركوبولو — الذى رحل إلى بلادهم بعد مائتى سنة تقريباً — أنهم كانوا يستعملون الحشيش فى القلعة فإذا خدروا حملوا إلى بقعة فى فناء القلعة وكانت مملوءة بالغانيات الحسان ليتمتعوا باللذائذ فيها حتى يتمثلوا فى ذلك الجنة ونعيمها ، فإذا أمروا أمراً نفذوه ، فإن استطاعوا الهرب فبها وإلا فالجنة مأواهم .

وقد كان حصنهم الحصين قلعة «ألموت» الجبلية ومعناها ملجأ العقبان لحصانتها ووعورة مسلكها ، وهى قلعة على مسافة ستين فرسخاً إلى الشمال من قزوين ، وقد يسمى أصحابها بالفدائيين لأنهم ربوا أنفسهم على الفداء، وكانوا يعلمون الأطفال الاستهتار بالموت ، ومن أغراضهم أن لا يبقوا على وجه الأرض أحداً من خصومهم ، قال صاحب كتاب الفرق «إن ضرر الإسماعيلية على الإسلام أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من ضرر الدهرية ومن ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان» وكان من تعاليمهم على ما يروى خصومهم عدم التمسك بالشرائع والإباحية كالذى يقول :

خذى الدف يا هذه واضربى ... وغنى هزاريك ثم اطربى

تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب

لكل نبى مضى شرعة ... وهذى شريعة هذا النبى

إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوّموا فكلى واشربى

ولا تطلبى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب ...

ولا تمنعى النفس من المعرسين ... من الأقربين أو الأجنبى

فلم ذا حللت لهذا القريب ... وصرت محرمة للأب

أليس الغـــراس لمن ربّـــه ... وأسقاه فى الزمن المجـــدب

• • •

وعلى الجملة فقد اشترطوا فى داعيهم أن يكون عارفاً بالوجوه التى تدعى بها الأصناف ، ثم يدعى كل صنف بما يناسبه ، فمن رآه الداعى مائلا إلى العبادات حمله على الزهد والعبادة ، ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له العبادة بله وحماقة إلى مثل ذلك . وزعيمهم الحسن بن الصباح هذا يروى بعض الرواة أنه كان صديقاً لعمر الخيام ونظام الملك وقد أخذ تشيعه عن مصر حين رحل إليها واعتنق المذهب الفاطمى وخصوصاً الفرع النزارى ثم رحل إلى فارس ، وقد وضع لأتباعه خطة لاغتيال العظماء البارزين من السنيين حتى يخلو الجو للتشيع ، وقد مهد لذلك بالتشنيع على الخلفاء والحكام السنيين وكبّر مظالمهم ، وتحدث بقرب ظهور المهدى الذى يملأ الأرض عدلا ، وقد استولى بقوة جيشه على بعض الأماكن بسوريا ؛ وكان يعلم أيضاً تعاليم إباحية تدعو إلى رفع التكاليف عمن تقدم فى المذهب اجتذاباً لقلوب العامة ، وقد أرهب الملوك والعظماء فى البلاد لكثرة ما كانوا يغتالون ، وكان أول من اغتالوه

الرجل العظيم « نظام الملك » الوزير السلجوقى المشهور ،
والواقع أنهم لم يكونوا موفقين فى قتله لأنه من أحسن الرجال
عدلا وعطفاً على العلماء وتشجيعاً للعلم ، وهو الذى أنشأ المدرسة
النظامية فى نيسابور والمدرسة النظامية فى بغداد ، وهى التى
درس فيها الجوينى والغزالى والكيا الهراسى وأمثالهم ، واعتنق
المذهب الأشعرى وساعد على نشره ، وهذا الوزير وضع رسالة
بالفارسية فى نظام الملك تحتوى على آراء كثيرة صائبة مثل
تحذيره السلطان من تدخل أصدقائه غير المسئولين فى شئون
الدولة ومن تدخل بعض رجال البلاط للنظر فى الدعاوى وإصدار
الأحكام واستغلال سلطتهم فى ابتزاز أموال الرعية ، وأخيراً
حذر نظام الملك السلطان السلجوقى من الحشاشين ونصحه
بقتالهم قبل أن يستفحل أمرهم ، ولكنهم تمكنوا من قتل نظام الملك
قبل أن يقتلهم فقد كان قد خرج إلى رحلة فاعترضه شاب من
هؤلاء الفدائيين متزيياً بزى الصوفى وتظاهر بأنه يريد إحساناً
ومد يده إليه فمد نظام الملك إليه يده فانتهز هذا الشاب هذه
الفرصة وطعنه بخنجر مات منه .

وقد كان أمير هذه القلعة يسمى داعى الدعاة ومن تحته

الدعاة ، وكان إذا انتدب أحد أتباعه لعمل فدائى قال له : «قم إلى فلان فاقتله ومتى رجعت تحملك ملائكتى إلى جنة النعيم وإذا مت دون ذلك أرسل ملائكتى إليك يذهبون بك إلى جنة الخلد» . وقد روعت هذه الحادثة نفوس العظماء وخوفتهم منه، وقد أراد هؤلاء الحشاشون مرة أن يقتلوا صلاح الدين الأيوبى لأنه كبير من كبراء السنية، ولأنه قضى على الدولة الفاطمية فى مصر، وذلك أن قائد حلب أغرى هؤلاء الحشاشين بقتل صلاح الدين حين حصرها لأول مرة وكان هذا الزعيم يسمى رشيد الدين ويعرف بشيخ الجبل ، ولكن صلاح الدين نجا من هذا الفدائى بأعجوبة .

وظلت هذه الفئة تروع البلاد بقتل العظماء وتصل إلى ذلك بمؤامرات سرية دقيقة وتنظم شئونها فى دقة وإحكام حتى علا شأنها وكثر تخريبها ، ولكن كان لهم موقف حميد وهو محاربتهم الصليبيين وإيقاع الرعب فى نفوسهم ، وأخيراً أوقع بهم هولاكو المغولى فاستولى على قلعة ألموت فى سنة ١٢٥٦م، ثم جاء بيبرس فقضى عليهم القضاء الأخير سنة ١٢٧٢ م، ومنذ ذلك الحين تفرق شملهم فى سوريا وفارس وعمان وزنجبار

والهند وكفى الله المؤمنين شرهم . ومن الأسف أن تعاليمهم كانت سرية وقد دمرت كل آثارهم فلم يبق لنا منها ما نستنتج منه تعاليمهم الصحيحة ولكنهم على كل حال يدينون بالمهدى وبالتشيع وينظمون أنفسهم تنظيما شيعياً ويستقون من نبع التعاليم الفاطمية ، وقد أطلق الفرنج هذه الكلمة كلمة حشاشين « Assasins » على المغتالين أخذاً من اسم هذه الفئة ، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد فإن هذه الثورات التى ذكرناها وأمثالها كشفت للمسيحيين عن ضعف المسلمين فشجعت على الحروب الصليبية كما كشفت حملة مصر على العثمانيين وهزيمتهم عن ضعف العثمانيين فأطمعت الأوربيين فيهم .

نعم إن المؤرخين نسبوا الحروب الصليبية لجملة أسباب منها اضطهاد الحجاج المسيحيين للقدس وسوء معاملتهم ولكننى لا أنكر أن من أهم الأسباب فى الحروب الصليبية التقارير السرية التى كان يكتبها القسس المتزيون بزى الحجاج والتى تبين ضعف المسلمين وتحث الصليبيين على انتهاز الفرص والهجوم على المسلمين ، وأخذ البلاد منهم ، ولولا أن قيض الله للإسلام محمود زنكى وصلاح الدين وبيبرس وأمثالهم لضاعت

البلاد الإسلامية كلها بسبب هذا الضعف الذى سببته الثورات : ثورة الفاطميين والموحدين والزنج والقرامطة والحشاشين .

ثورة البساسيرى

هذه هى الثورات الكبرى المهدوية ، وهناك ثورات صغيرة أخمدت فى مهدها كثورة البساسيرى ، وهو رجل تركى كان مقدم الأتراك ببغداد ، وكان القائم بأمر الله الخليفة العباسى قدمه على جميع الأتراك وقلده الأمور بأسرها ، وخطب له على منابر العراق وخوزستان وهادنه الملوك فراسله المستنصر بالله الفاطمى وأسر إليه أن يدعو بالمذهب الفاطمى فى العراق وإذا هو فعل ذلك وأزال الخليفة العباسى وعد بأن يكون والى الفاطميين على العراق وأن يمنح جميع السلطان فقام البساسيرى على القائم بأمر الله العباسى وخطب للمستنصر بالله الفاطمى ، وظل على هذه الحال حتى جاء طغرلبك السلجوقى وقابل البساسيرى وقتله وأعاد القائم إلى بغداد ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ . وعلى كل حال كان الشيعة يؤلفون حكومة بجانب الحكومة الرسمية من عهد على ويتقنعون بالتقية وهو مبدأ

معناه التظاهر بعكس ما فى الضمير حتى يجد صاحبه الفرصة ،
فكان رجال هذه الحكومة العلوية من عهد على يؤلفون حكومة
داخل الحكومة على رأسها إمام يظهر إذا دعا الحال
ويختفى إذا دعا الحال ، وإذا ظهر بشر بالمهدى وادعى أنه
مبعوث لملء الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلماً . وكانت سلطة
الخلفاء الرسميين وقوتهم موزعة بين إدارة شئون البلاد واتقاء
العلويين ، شأنهم شأن الأحزاب اليوم نصف قوتهم تقريباً
موجهة إلى إدارة مرافق الحياة والنصف الآخر موجه إلى اتقاء
شر المعارضين ، ولو وجهت كل قوتهم لمصلحة البلاد لتغير
وجه التاريخ .

وكل حادثة من الحوادث تكون شوكة فى جنب الدولة تهد
من كيانها وتهز من عرشها سواء انتصر فيها الخلفاء الرسميون
أم انهزموا ، وأخيراً وبعد طول الحوادث وكثرتها تنهدم الدولة .
هكذا كان شأن الدولة الأموية مع العلويين وخصوصاً بعد
مقتل الحسين فقد كان مقتله سبباً لاستجلاب العطف على
العلويين . ولما كبر أبناء الحسين عولوا على الأخذ بثأر
أبيهم ، وظلت المجازر تنتشر على يد الخلفاء الأمويين ، وظل

العلويون يعملون فى الخفاء ضد الأمويين ويدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس حتى سقطت الدولة الأموية ، فلما جات الدولة العباسية ابتدأت موقفها بسفك دماء العلويين والأمويين معاً فكرههم العلويون واستعملوا معهم مبدأ التقية هذا وبذلك ظل الحال كما كان فى العهد الأموى ، إمام يموت وإمام يقوم مقامه ، وإمام يختفى وتبث الدعوة له ويذاع بأنه سيخرج لينتقم من الظالمين ، وكلما انطفأت ثورة قامت مقامها ثورة ، وساعد على نجاحهم أن العباسيين كانوا ظلمة لا يتحرون عدلا ولا يقيمون للشعب وزناً فكان الشعب ناراً خامدة تنتظر من يشعلها ، حتى من اتصف بالعدالة منهم فإنما عدالته نسبية ، ولم يكن أحد منهم يعطف على العلويين ، والشعراء يقفون ببابهم يمدحونهم ويذمون العلويين ، والأئمة العلوية تزعم كل حين أنهم إذا ولوا أمور الرعية ساسوها بالعدل المطلق. وفرق كبير بين الدعوى والواقع ، وقد شكا المأمون من هذا ، فقد رأى أن الأئمة يختفون عن الأعين ويرتكبون ما يرتكبون من الإثم ولا من يراهم ويعرف قيمتهم ، فقال إن من الخير للناس أن تظهر هذه الأئمة حتى يعرفوا زلاتهم ،

ولا يقدسوهم هذا التقديس ، علماً بأنهم إذا ظهروا على مسرح الحياة وبان للناس كيف يحكمون وكيف يرتكبون ما حرم الله سقطوا من أعينهم ، ولكن ما داموا مضطهدين مختفين مكتفين بالدعوة بقى العطف عليهم فى الناس ولذلك اعتزم أن يولى بعده عليا الرضا ، كالذى حكى أن ملكاً كان يطلب منه وزيره كل يوم مطالب للشعب ، والملك يمانع فيها ، فلما مات الملك وخلفه ابنه ، وكان أعقل من أبيه ذهب إليه الوزير يطلب هذه المطالب ، فقال الملك « قد أجبتك إلى كل ما تطلب فصرخ الوزير من هذه الإجابة لأنه إنما علم أنه يعيش على الوهم والخداع ، فإذا حققت مطالب الشعب كلها ذهب وهمه وخداعه وعلمت حقيقته .

هذا كله فى العصور القديمة . . .

البابية

أما فى العصور الحديثة فليست فكرة المهدى فيها أقل شأناً مما كان فى العهود القديمة فمن حين إلى آخر كانت تظهر حركات ثورية يدعى القائم بأمرها أنه المهدى المنتظر . وسنذكر أهمها من غير استقصاء .

فى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت فرقة جديدة متطرفة تدين بالتشيع وبالإسماعيلية وبفكرة المهدية وهى فرقة البابية .

وهى على النقيض من مذهب الوهابية . فلئن كانت الوهابية لا تعترف بالزمن وأثره ، ولا بما ظهر من تقاليد الإسلام الجديدة وأوضاعه ، فإن البابية ترمى إلى مسايرة الزمان والنظر إلى الظروف الحاضرة . ولئن كانت الوهابية أيضاً لا تؤله أحداً إلا الله ولا تقول بعصمة أحد إلا الأنبياء ، فإن البابية ترى – تأثراً بالنظريات الأفلاطونية الحديثة – أن للأئمة والدعاة فيضاً إلهياً وقبساً من نور الله ، ومكاناً للوحى الإلهى وأن المهدى

والأئمة من بعده لهم عصمة الأنبياء . وأن الله يتجلى عليهم تجلياً تدريجاً يرتقى إلى أن يصل إلى العقل الكلى .

وعلى هذه العقائد ظهر ، فى البيئة الفارسية ، شاب ورع اسمه « ميرزا على محمد » الشيرازى ولد سنة ١٨٢٠م وكان تقياً عرفه معاصروه بالزهد والورع والتقوى وشهد له أصحابه بالمواهب الممتازة والحماسة القوية للعبادة وأجلّوه لذلك . فأثر هذا الإجلال فى عقل الشاب واعتقد أنه مبعوث من الله لأداء رسالة دينية عالية ، وأن العناية الإلهية اصطفته لتحقيقها ، وأن رسالته هذه حتمية لأن الزمان والبيئة يحتاجان إلى مبعوث جديد ، فأعلن أنه « الباب » الذى يدخل الناس منه إلى الإمام المستور الذى هو مصدر لكل خير فى العالم . ثم تطور الأمر عنده فاعتقد أنه فوق أن يكون مدخلا للإمام المستور بل هو نفسه الذى يهدى العالم للحق ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، وأعلن أنه المهدى الجديد المنتظر ، وأن المهدى المنتظر حل فيه حلولا مادياً جسمانياً، كما كان من أمر الحلاج فى اعتقاده أن الله حل فيه إذ كان يقول: « ما فى الجبة إلا الله » وكما كان يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن جسمان حللنا بدنـــا

وكان « الباب » هذا يقول : إن قبساً من الله حل فى الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد وأنه حل فيه أيضاً ، وكان يناهض فقهاء فارس — وكل فقيه منهم مجتهد يسمى الملا — فيذمهم ويرميهم بالنفاق والملق والجشع وحب الدنيا والبعد عن الآخرة ، وكان يفسر القرآن على عقيدة باطنية تفسيراً رمزياً ويتأول نصوصه . ولم يكن يؤمن بشعائر الإسلام كلها وتفاصيلها ويرى أنها مرهقة وأنها فوق طاقة البشر فى الوقت الحاضر وأنه ليس معنى البعث الحياة بعد الموت وإنما البعث يحصل مراراً بالتجدد الدورى ، وهى هى التى تسمى فى القرآن بالحياة الأخرى .

ولم يكتف بهذا الجانب الدينى بل دعا إلى أخلاق تعتمد على العقل والذوق فطالب مثلا بالمؤاخاة لا على أن المسلم أخو المسلم فقط بل على أن الإنسان أخو الإنسان من غير تفريق بين غنى وفقير ولا بين مسلم ونصرانى ويهودى ووثنى ودعا إلى المساواة بين الرجل والمرأة لأنها شريكة له فى الإنسانية ، نعم إن الرجل بحسب تكوينه له وظائف يستطيع أن يقوم بها . ولا تستطيع أن تقوم بها المرأة والعكس ، ولكن فيما عدا ذلك فالكل سواء فى الميراث وفى رفع الحجاب ، وأنكر الطريقة العرفية المتبعة فى الزواج ،

فوضع تعاليم أخرى تتعلق بالزواج والطلاق وبناء الأسرة وطرق التربية وبذلك أضاف إلى تعاليمه الدينية تعاليم اجتماعية أخرى، وأضاف إلى ذلك أيضاً تعاليم تتعلق بالحروف وبالأعداد. وجعل للحروف جملا لها دلالتها الرمزية وكان مما قدسه العدد (١٩) واستند فى ذلك على ما جاء فى القرآن «عليها تسعة عشر» واستند على هذا العدد فى تنبؤاته وفى أفكاره. وقال إنه فى دعوته هذه يقوم مقام الأنبياء الأئمة وأنه موضع للتجلى الروحى الإلهى؛ وقد خلف كتاباً سماه «البيان» أودع فيه كل تعاليمه وآرائه، وكان من أسباب نجاحه فتاة جميلة فصيحة اسمها «قرة العين» كانت تؤثر فى الناس بجمالها وفصاحتها وتطبق على نفسها تعاليم «الباب»، ولكن تعاليمه هذه مست السياسة ولو من طريق غير مباشر. فلئن كان «الباب» معصوماً متمتعاً بالتجلى الإلهى وحده فمعناه إذاً أن «الشاه» لم يتمتع بهذه الميزات وأنه أقل منه درجة ولذلك حاربه الشاه وحارب أتباعه. وقبل أن يموت الباب اختار اثنين عدهما خير أتباعه هما «صبح أزل» و«بهاء الله» غير أنه كما رأينا دائماً لا يتسع العالم لزعيمين على شىء واحد كما حدث للأمين والمأمون وكما حدث لخلفاء الإسكندر وكما حدث

للسنيين والشيعيين أنفسهم ، فتفرق أتباع الباب بعد موته إلى فريقين فريق يتبع « صبح أزل » وفريق يتبع « بهاء الله » وكل فريق يرى الفريق الآخر خارجاً عن المذهب ويتبادلون المطاعن ، وكان التابعون لصبح أزل أقل من التابعين لبهاء الدين ولكن الشاه على العموم طاردهم ففر أتباع صبح أزل إلى العراق ثم ذهبوا إلى جزيرة قبرص ، وأما « بهاء الله » فقد نفي إلى « أدرنة » ؛ وكان طابع « صبح أزل » طابع المحافظين يرى التمسك بتعاليم الباب ، وطابع « بهاء الله » طابع الأحرار إذ يرى أن تعاليم الباب تتطور بتطور الزمان والمكان وأن الباب ليس إلا ممهداً لبهاء الله وأن بهاء الله هو الذى حل فيه النور الإلهى والقبس الإلهى . واعتمد البهاء على نص جاء فى كلام الباب وهو قوله « سيظهر فى يوم من الأيام من هو أعظم منى » وتلقب بهاء الله بـ « منظر الله » وقال إنه هو الذى تتجلى فى طلعته ذات الله كما تتجلى طلعة الإنسان فى المرآة ، واعتقد فيه أصحابه أنه فوق البشر ، ووُضِع باللغة الفارسية كثير من الأناشيد فى مدحه ، وقد وضع بهاء الله كتباً باللغة العربية وباللغة الفارسية منها كتاب فارسى اسمه « الكتاب الأقدس » وهو يشير بهذا الاسم إلى

أن كتابه أقدس من التوراة والإنجيل اللذين أطلق عليهما الكتاب المقدس، ومن القرآن الذى يقدسه المسلمون، وزعم أنه قد بشر به الأنبياء من قبل كما بشر المسيح بمحمد وأنه له تعاليم خاصة لا يبوح بها إلا لمن قدر عليها من الخاصة كما كان للنبى محمد تعاليم خاصة لم يبح بها إلا لعلى، وباح على بها لخاصته حتى وصلت إلى الأئمة ، وأن رسالته نسخت رسالة « الباب »، ولكنه اتفق معه على معنى الإنسانية والدعوة إليها ، وقال أيضاً : إن خير الناس من جعل العالم كله وطناً له ؛ ورمى العقائد القديمة بالضيق والجمود وبث فكرته فى العالم كله وأرسل الدعوة إلى الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات ، وإلى الشعوب من طرق مختلفة وكان له تنبؤات صح بعضها ، من ذلك ما تنبأ به من سقوط نابليون الثالث قبل سقوطه بأربع سنوات وكان يرمى إلى أن تكون ديانته كتعاليمه إنسانية عامة كما كان يرمى أيضاً إلى أن تكون للعالم كله لغة واحدة تكون إما من لغة عالمية موجودة أو من لغة كالإسبرنتو ، وكان أيضاً يرى المساواة وأنه نزلت عليه سورة تسمى سورة الملوك ، أنب فيها سلطان تركيا لأنه فرق بين حقوق شعبه وجعل لبعضهم على بعض امتيازات، وكان يرى

المثل الأعلى فى الزواج الزواج بزوجة واحدة ، ولكنه أباح فى حالات خاصه الزواج باثنتين ، وأباح الطلاق للضرورة ، وكان يرى أيضاً أن الشريعة الإسلامية إنما كانت صالحة لزمانها ولكن لا تصلح لزمانه ولذلك غير من شعائرها. فلم يحتفظ بصلاة الجماعة إلا فى صلاة الجنائز واستنجس الحمامات الفارسية وحبذ الطهارة الجسمانية وأباح لأتباعه أن يعملوا كل شىء ما لم يخالف العقل البشرى وشنع على علماء وقته ووصفهم بالملق والنفاق وبتعويق الإرادة ونسخها ولم يؤمن بالحرية السياسية وقال إن الفرق بين الإنسان المتمدن والحيوان أن الإنسان المتمدن كبح جماح الحريات الحيوانية وليس للحريات نتيجة إلا الفوضى وخير للناس أن يعيشوا عيشة محكومة بالقيود المعقودة . ولما مات بهاء الله انتقلت زعامته سنة ١٨٩٢ إلى ابنه عباس أفندى وتسمى بعبد البهاء أو « غصن أعظم » وقد لقيته أثناء سفره إلى أمريكا فى فندق بالزيتون « ضاحية من ضواحى القاهرة » وكنت إذ ذاك طالباً فى مدرسة القضاء الشرعى حوالى سنة ١٩١٠ وسمعت حديثه وكان مما لفت نظرى خضوع أتباعه له خضوع الصالحين لله ، ودلنى حديثه على اطلاع واسع وعلم بالفلسفة الإسلامية

القديمة كفلسفة ابن سينا وابن رشد وعلم بالفلك والطبيعيات، ولكن كنت كلما سألته عن مذهبه وأركانه حوّل الحديث إلى مسائل عامة وكره أن يتكلم فى هذا الموضوع . وقد زاد فى تعاليم أبيه ونزع إلى التوفيق بينها وبين العقليات الغربية والأمريكية وكان يستشهد بالكتاب المقدس على بعض أشياء تؤيد ديانته ، وقام البهائيون فى العالم بحركة واسعة كبيرة حتى دخل كثير من الناس فيها ودخل فيها عدد كبير من النساء الأمريكيات اللاتى ناصرنها وكان بعضهم وبعضهن يذهبون إلى جبل الكرمل فى فلسطين لرؤية الإله الجديد ؛ ومن أشهر الذاهبات الآنسة لورا التى كانت تصحب عبد البهاء وتكتب اختزال ما ينطق به وتنشره فى العالم، ورأينا فى القاهرة عدداً غير قليل يتبعون مذهبه حتى إن اسم البابية اختفى وحل محله اسم البهائية . وقد أنشأوا على حدود روسيا بناء عاماً يعقدون فيه اجتماعاتهم كما اتخذوا مكاناً فسيحاً فى بغداد يجتمعون فيه، ولما استولت الحكومة عليه رفعوا عليها دعوى ، وكانوا يؤثرون التقية كسائر الفرق الشيعية ويخفون دينهم عن غير أتباعهم ، ولهم أتباع كثيرون فى فارس يقدرون بثلاثة ملايين ، وأتباع كثيرون فى أوربا وأمريكا،

ولهم مجلة فى أمريكا تصدر منذ سنة ١٩١٠ وهى تصدر تسع عشر عدداً فى السنة طبقاً لتصديق الباب دائماً لهذا العدد ومصدرها الرئيسى شيكاغو . وهم يبنون بناء يريدون أن يكون بناءهم المعتمد وسموه «مشرق الأذكار» . ومن اعتنق البهائية من اليهود استخرج من التوراة مايؤيدها كالآية التى وردت فى سفر أشعياء وهى « يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبداً أبديا » وقد كتب الأستاذ براون فى كتاب دائرة المعارف فى الدين والأخلاق بالإنجليزية مقالا بديعاً فى البابية يدل على بعد النظر وسعة الاطلاع وعمق التفكير . ومن أحسن ما فيه إظهار الأثر الاجتماعى للفرقة البابية والبهائية .

وإذ كان البابية والبهائية تدعوان إلى السلام وتبطلان الجهاد الذى جاء به الإسلام ، وتعدان الناس إخواناً لا فرق بين فارسى وإنجليزى ولا شرقى وأوربى ، كان من مصلحة الإنجليز أن يحتضنوها لأنهما تمكنانهم من الاستعمار من غير مقاومة ولا جهاد ؛ والدعوة إلى السلام إنما تكون صالحة يوم يتفق عليها الناس جميعاً أما إذا دعا إليها الضعفاء وبقى الأقوياء يتسلحون كانت صحبة كصحبة الحمل للذئب والأعزل للمسلح .

القاديانية

وأتى على أثرها فرقة القاديانية وزعيمها « غلام أحمد » ، وانتشرت فى الهند ، والقاديانية نسبة إلى قاديان ، وهى بلدة من أعمال البنجال . وقد زعم « غلام أحمد » هذا أن عيسى ابن مريم مدفون بموضع قريب من كشمير ، وهو قبر بوذى قديم . ويقول إن عيسى ذهب إلى هذا المكان فراراً من اليهود ببيت المقدس وأن الوفاة أدركته هناك ، وزعم أن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤيده ، كما زعم أنه المهدى المنتظر وأن الله حل فى جسده وأن له أيضاً رسالة عالمية لا للمسلمين وحدهم وكذلك مهديته من جنس سلمى كالباب لا من جنس عنيف كالفاطمية والحشاشين ، وأعلن عدم الجهاد وحبب إلى أتباعه السلم والتسامح وعدم التعصب ووجههم إلى العلم والثقافة ، واجتهد فى أن يكون ظاهره من المسلمين ، وقد بلغ أتباعه نحو مائة ألف والتف حوله بعض الهنود المثقفين ثقافة

أوربية ، وأنشأوا مجلة إسلامية فى لندن ، وتوفى غلام أحمد هذا سنة ١٩٠٨ فى لاهور وكتب على قبره ، « ميرزا غلام أحمد موعود » ومعنى موعود مهدى ، وأوصى بإنشاء مجلس ينتخب انتخاباً حراً ، ومن وظيفته أن ينتخب الرئيس الروحى للأحمدية ، وقد احتضنت هذا المذهب أيضاً الدولة البريطانية للأسباب التى ذكرناها من قبل ، وقد ترجموا القرآن إلى الإنجليزية وطبعوه طبعاً متقناً بالعربية والإنجليزية وعلقوا عليه بالإنجليزية بعض تعليقات غريبة كدعواهم أن الجن هم الغرباء وكتفسيرهم آية سليمان « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » بأن المعنى أن هؤلاء الغرباء كانوا يستولون شيئاً فشيئاً على بعض البلاد التى كان يمتلكها ، فلما مات سليمان ما دلهم على موته إلا انفتاح الباب أمامهم وعدم انتقام سليمان منهم وإخضاعهم ، وهكذا تدور التفاسير والتعليقات على تأويل كل شىء يدل ظاهره على مخالفة العقـــل .

وإذا كانت تعاليمهم وتعاليم الباب والبهاء غير واضحة تمام الوضوح وكان اضطهادهم سبباً فى ضياع كثير من مذهبهم

وروايتها عن طريق أعدائهم فربما نسب إليهم ما ليس من رأيهم والله أعلم . -

وقد قال أحد الكتاب المحدثين عن فرقة القاديانية :

وسهلت الحكومة البريطانية لأتباع غلام أحمد التوظف بالمحلات الحكومية العالية وإدارة الشركات الكبيرة والمفوضيات فى الممالك الخارجية وجعلت منهم ضباطاً فى رتب كبيرة فى مخابراتها السرية ، وفوضت إليهم إمارة مدن كبيرة وجعلت البعض منهم وكلاء الإمارات وغير ذلك من أمور الدولة الهامة .

وحين تم تقسيم شبه الجزيرة الهندية إلى دولتين : باكستان وهندستان ، انحازت أكثرية هذه الفرقة إلى الباكستان وأخذ أفرادها يجدون ويجتهدون فى نشر مبادئهم الهدامة بطرق مختلفة وأسسوا فى معظم البلاد العربية وغيرها دون المملكة السعودية مراكز لتبليغ ونشر ادعاءاتهم الكاذبة بجد ونشاط غير عادى .

وأعلن غلام أحمد أن من لا يصدق بنبوته لا يدخل الجنة أبدا ، وأمر أتباعه بأن يصلوا مع بعضهم ولا يصلوا وراء إمام آخر مسلم لا يعتقد اعتقادهم ولا يصلوا على الجنائز سواء كانت

جنازة صغير أم كبير .

وجاء فى بعض كتبه :

« أنا أحمد الذى بشر به عيسى عليه السلام وجاء نصه فى القرآن ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد، هذه الآية فى حق. وليست فى حق محمد حيث إنه محمد ، وأنا أحمد .

«وأنكر الاعتقاد بأن لا نبى بعد محمد بل إن ذلك قلة أدب فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وباب النبوة مفتوح ، والدين الذى يغلق باب النبوة دين ميت » .

« إن الله أخبر بأن قاديان هى أم القرى وهى الحقيقة والآن تحولت البركات التى كانت تنزل بمكة والمدينة إلى قاديان » .

« ولا شك أن ذكر قاديان فى كلام الله موجود حيث ورد :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والمسجد الأقصى الذى ورد ذكره فى القرآن هو الذى بناه غلام أحمد .

«ويعلن غلام أحمد بأن من لم يطعه ولم يبايعه فقد عصى الله وعصى رسوله وتعدى الطريق ومصيره إلى جهنم » .

ومن تعاليمهم أن الحج يحتاج إلى مال كثير يصرفه الحاج

فى سفره وقد يصل إلى حد الإسراف وأكثر هذا المال يذهب إلى صناديق الشركات الأجنبية التى لا تفيد المسلمين شيئاً ويقترحون عليهم أن المال الذى يصرف على الحج يجب أن تفتح به مدارس لتعليم القرآن الكريم حيث يستفيد الواحد منه إلى الأبد . . . . إلى أمثال هذه الدعاوى .

وهذه الفرقة تسمى أحياناً القاديانية ، وأحياناً تسمى الأحمدية نسبة إلى غلام أحمد ، وأكثر المسلمين ينفرون منهم ، ويعتقدون أنهم مارقون عن الإسلام خارجون على أهله ، وقد صرح مصطفى كمال باشا وشيخ الإسلام ومفتى الإسلام بخروج القاديانية عن الإسلام . ويزعم محمد على وأتباعه أنهم مسلمون ، وأن غلام أحمد ليس إلا مسلماً ومجدداً ، ولكن فى كتبهم الأساسية ما يثبت غير ذلك ، فقد نشر فى مجلة الديانات مجلد ٦ ص ٢٩٩ أن محمد على رئيس القاديانية كتب أن الصاحب ميرزا « نبى » آخر الزمان ، ويعنون بميرزا هذا غلام أحمد ، وجاء فى الخطبة الإلهامية لميرزا هذا قال : رأيت فى المنام أنى إله وأنا فى اعتقادى كذلك (ع كمالات ص ٥٦٥) ويقول إنى أعتقد أن الإيحاءات التى أتلقاها معصومة من الخطأ

كتلك التى كان ينزل بها القرآن « الدر الثمين » ، وقال : « إن إيمانى بما يوحى إلى ليس أقل على كل حال من إيمانى بالقرآن الكريم » . وجاء فى أخبار الأخبار « أن الله يقول له أى ميرزا : أخبر الناس كافة أنك الرسول المقدس إليهم جميعاً » وجاء فى كتاب آخر ، أن الله الحق هو الذى أرسل نبيه فى قاديان ، وأن مدينة قاديان ستظل فى مأمن من الوباء إذ كانت محل إقامته ، ثم تدلى فزعم أنه أعظم من الحسين ابن على وأنه المهدى المنتظر .

• • •

كما نشأ فى الهند زعماء كثيرون تسموا بالمهدى ولكن دعوتهم لم تلق النجاح الذى لقيته البابية والبهائية والقاديانية كدعوى السيد أحمد الذى ظهر فى أوائل القرن التاسع عشر فى جهات الهند وحارب الأشياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولكن لم تقم له قائمة .

السنوسية

وربما كان من أشهر دعاة المهدية في العصور الحديثة أيضاً السيد محمد المهدى السنوسى ابن الشيخ محمد السنوسى ظهر بالمغرب فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى ونزل جغبوب على مقربة من واحة سيوة ، وقد أنشأ زوايا كثيرة فى أماكن متعددة يبلغ عددها نحو ثلاثمائة زاوية ، وانتشرت طريقته انتشاراً عظيماً ، ولما توفى لمح قبل وفاته أن المهدى المنتظر سيظهر قريباً وأن ظهوره سيكون ختام القرن الثالث عشر الهجرى وقد رأيت كتاباً عنوانه « الدرة الفردية فى بيان الطريقة السنوسية » مطبوعاً بمطبعة الجريدة بمصر وتدور مقدمته على إثبات أن السيد السنوسى هذا هو المهدى المبشر به ، ومما جاء فى تلك المقدمة قوله « اعلم أن أستاذنا السيد محمد المهدى رضى الله عنه كانت ولادته بماسة

من الجبل الأخضر سنة ١٢٦٠ أول ليلة من ذى القعدة عند الفجر وغيابه عن الأعيان لحكمة أرادها الواحد المنان ضحوة يوم الأحد ٢٤ صفر سنة ١٣٢٠ ...

مهدى السودان

وأخيراً كان المهدى فى السودان وقد كانت له حركة قوية شغلت الحكومات زمناً طويلا . وقد ولد المهدى هذا واسمه محمد بن عبد الله فى دنقلة وأسرته تقول إنها شريفة من نسل رسول الله ، وقد درس الفقه ثم تصوف علماً وعملا وقد خالف شيخه فى التصوف وتزهد وتقشف وكون لنفسه مريدين وأنصاراً على مذهبه الخاص وألف لهم الكتب الكثيرة يدعوهم فيها إلى طريقته وما زال يكبر فى نفسه حتى اعتقد أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا وصلاحاً وقوى هذه العقيدة فى نفسه صديقه عبد الله وهو المعروف بالتعايشى الذى أصبح خليفة من بعده وأصله من دنقلة كذلك وقد حسن له عبد الله هذا الرحلة إلى كردفان وفى أثنائها اتصل بكثير من رؤساء القبائل وساعد على نجاح دعوته بغض الأهالى للحكومة المصرية لما كان يقوم به بعض

الولاة من فرض ضرائب ظالمة ومعاملة قاسية وما كان من إعلان الحكومة المصرية عزمها على إلغاء الرقيق وقد أثر ذلك أثراً سيئاً فى الحياة الاقتصادية فى البلاد فلما قويت حركته بعث رؤوف باشا حاكم السودان إلى المهدى يأمره بالمثول بين يديه فى الخرطوم لأنه كان يستهين بأمره فلم يأبه المهدى بأمره بل أجاب عن هذا بإعلانه أنه سيد البلاد الحقيقى وأعلن الجهاد ضد الكافرين وهو يقصد بالكافرين ما يشمل المسلمين المصريين الظالمين فأرسل رؤوف باشا حملة عليه مكونة من مائتى رجل ببنادقهم ومدافعهم ، وكان المهدى إذ ذاك يقيم فى جزيرة آبا فأمر رؤوف باشا جنوده بإطلاق النار على المهديين ، وكان ذلك نهاراً ولم يكن للمهدى بنادق ولا مدافع فأمر أصحابه بالسكوت وأن يكمنوا فى الأدغال حتى يجيء الليل ثم أمرهم بالخروج من الأدغال ليلا فهجموا على الجنود المصريين وأفنوهم واستولوا على ذخائرهم . . . ومن ذلك الوقت حاربهم المهدى بسلاحهم ثم انتقل إلى كردفان ليكون بعيداً عن مقر الحكومة المصرية فى الخرطوم . . . وسيرت الحكومة المصرية حملة أخرى قوية مؤلفة من نحو ستة آلاف رجل ولكنها لم

تتخذ وسائل الوقاية المعتادة ، وكان من العادات المتبعة فى السودان أن يحاط الجند ليلا بأسياج شائكة فلم يفعلوا ذلك هذه المرة فأتاهم المهدى ليلا بجنوده وأبادهم ،وإذ ذاك عظم شأنه واشتد أتباعه إيماناً به وكان له فى القاهرة أتباع يبشرون به وتقاطر الناس من جميع أنحاء السودان ليروا ولى الله ويقدموا له الهدايا وكان منظره إذ ذاك متصوفاً زاهداً يلبس جبة وسراويل من كتان ويتمنطق بحزام ، ولكنه فيما بعد قلد المسلمين الأولين فى احتياز خمس الغنائم ، وأضاف إلى ذلك مصادرته للسارقين والخمارين والمدخنين للتبغ فكثرت الأموال لديه وانقلب مترفاً وحرم على أتباعه دراسة علم الكلام والفقه وأحرق الكتب التى تعالج هذه الموضوعات ولكنه أوصى بالرجوع إلى أصول الإسلام الأولى من قرآن وحديث .

ولما احتلت الحكومة البريطانية مصر بعد ثورة عرابى أرادت أن تخضع السودان فبعثت بعشرة آلاف مصرى بقيادة هكس باشا ولكن من الأسف أن أعلنت ذلك وأبطأت فى إعداد عدة الحملة ، وذلك مكن المهدى من حسن الاستعداد فهجم المهدى على المصريين غير أن المصريين صدوا هجومه أول

الأمر ثم هزموا آخره وأبيدوا عن بكرة أبيهم فوقع السودان كله تحت سلطان المهدى وفر من كان فيه من الأوربيين إلى مصر واستسلم للمهدى سلاطين باشا وكان قبل ضابطاً نمسويا ثم حاكماً على دارفور ثم اعتزمت الحكومة المصرية مصالحة المهدى والتخلى عن السودان وأرسلت لهذه المهمة غوردون باشا فأرسل غوردون إلى المهدى يعترف به سلطاناً على كردفان ويعترف بإباحة تجارة الرقيق فأجابه المهدى طالباً إليه الاستسلام وعزم المهدى على محاصرة الخرطوم وفيها غوردون باشا فتقدم إليها وقد أخطأ غوردون فلم يعلن إخلاء المدينة من غير المحاربين فكانوا سبباً فى الاضطراب والحاجة الشديدة إلى الضرورى من الأقوات وأخيراً أمر أتباعه بالهجوم على المدينة ففتحوها وقتل غوردون وترك البريطانيون السودان مؤقتاً .

وأحاط المهدى السودان بسياج قوى حتى يتقى شر الدسائس واضطر أن يمنع السودانيين مؤقتاً من الحج ولكنه أصيب فى منتصف يونية سنة ١٨٨٥ بالتيفوس فمات بعد ذلك بأسبوع وأوصى بالخلافة من بعده لصديقه القديم عبدالله وكناه بأبى بكر وهو عبد الله التعايشى المشهور . وقد اغتر عبد الله هذا بقوته

وسلطانه فاعتزم غزو مصر وهو مشروع كان ينوى المهدى تحقيقه وخاف المصريون هذا العزم، فسير سنة ١٨٨٩ جيشاً إلى مصر على رأسه القائد عبد الرحمن النجومى وأمره باجتياز وادى حلفا فأنزلت حامية وادى حلفا بجيشه خسارة جسيمة فى أثناء زحفه وخرج أقرباء المهدى على التعايشى لما أحسوا بضعف سلطانه وكان من أقواهم السيدة زوجة المهدى، وفى خريف سنة ١٨٩٦ « قضى اللورد كتشنر – وكان سرداراً لمصر – على إمبراطورية المهدى » وختمت هذه المأساة .

ثم كان فى آخر القرن التاسع عشر حركة مهدية أخرى فى الصومال إذ ظهر فى الصومال محمد بن عبد الله حسن وقد حج إلى مكة سنة ١٨٩٥ وهناك تصوف واعتنق فكرة المهدية حتى إذا رجع إلى وطنه دعا إلى طريقته وسرعان ما اكتسب نفوذاً كبيراً فى قبيلته ولكن الحكومة البريطانية قضت عليه سريعاً باكتسابها له واستخدامها إياه فى تهدئة الثورات التى تقوم حولها – وأخيراً فى أثناء الحرب العالمية الأولى استطاع الإيطاليون هناك أن يقضوا على سلطته فى شمال الصومال ومات سنة ١٩٢٠ بعد أن بث فى أتباعه تعاليم على غرار تعاليم المهدى .

خاتمة

هذه صورة موجزة لما سببته مأساة فكرة المهدية ، ومنها نفهم أن ثوراتها تكاد تكون متلاحقة منها ما كان يبلغ أقصى العنف كالحشاشين ومنها ما كان يسالم كالبابية . وأيا ما كان فقد أثرت هذه الحركة فى الدول الإسلامية المختلفة من أموية وعباسية وعثمانية ، كما شجعت الصليبيين على فهم ما عليه المسلمون من ضعف فهاجموهم واثقين من النصرة عليهم .

وبعـــد ، فمن المسئول عن ذلك ؟ . . . إن الشيعيين اضطهدوا من السنيين وكانوا يدعون أنهم إنما يفعلون ذلك دفاعاً عن أنفسهم ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية فى قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن إصلاحها فظلت تعمل عملها على طول الأزمان . ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبى يظهر ، ونحن إذا قرأنا كتاب «مقاتل الطالبيين»

لأبى الفرج الأصفهانى رعبنا من كثرة ما وقع على العلويين من قتل وتعذيب وتشريد ، وهذا القتل المتتابع حمل العلويين أن يختفوا وقام حول الاختفاء دعاو غير معقولة من عصمة الأئمة ونحو ذلك ، ولهذا التعذيب والقتل أيضاً اضطر الشيعيون أن يعتنقوا مبدأ التقية ، ومعناه أن لا يبيحوا بأسرارهم ومعتقداتهم إلا لمن يثقون بهم ، وأنشأوا لأنفسهم أدباً شيعيا لاينقطع وهو يقابل الأدب السنى ولئن كان كثير من الأدب السنى كان يقال فى مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنيين فإن الأدب الشيعى كان يقال فى مدح الأئمة والرثاء الحار فى قتلاهم .

وقد أثرت هذه الأحداث المتتابعة أحزاناً عميقة فى نفوس الشيعة وانقلبت أحياناً إلى ثورات مهدية نقلنا بعضها ، كما أثارت دموعاً غزيرة حارة حتى ضرب المثل برقة دمعة الشيعى وقال القــائل :

أرق من دمعــة شيعيــة ... تبكى على بن أبى طالب

وألف الشيعيون الاضطهاد والبؤس والشقاء حتى تمرسوا عليه ، وانقلبت بعد ذلك هذه الحالة إلى مؤامرات سرية وتدبيرات خفية حتى لو قلنا إنهم مهروا فى ذلك كمهارة الماسونية لم نبعد

عن الصواب وإلى الآن يجددون هذه الأحزان فى العشرة الأولى من المحرم وينشدون القصائد ويضربون أنفسهم بالجنازيز ذكرى لمأساة كربلاء ويخصون بالسخط والكراهية يزيد وآله الأمويين ويقول بعضهم ما لحياتنا قيمة لو لم نحزن على مقتل الحسين ونبكى عليه . ويرى بعضهم أن الحزن على الحسين علامة الإيمان الصحيح .

ومما زاد فى العطف عليهم أنهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم معارضون للدولة الرسمية القائمة والمعارضون دائماً ينالون عطف الشعوب كالذى نراه بين أحزابنا اليوم ... يضاف إلى ذلك أنهم مضطهدون وكذلك المضطهد محل العطف وقد أنجح مواقفهم توالى الظلم من رجال الدولة الرسمية حتى لا يكاد ينجو من ذلك أحد منهم فإسراف فى الترف ومصادرات للأموال وضرائب قاسية ظالمة وعكوف على الشراب إلى غير ذلك .

نعم إنه كان من الجميل جداً كرههم لظلم الخلفاء الرسميين وإفهامهم الناس هذه المظالم التى ترتكب وحثهم على المطالبة بتحقيق العدل ورفع الظلم ولكن يؤخذ عليهم شيئان : الأول

أنهم مزجوا هذه الدعوة بالأساطير ولم يكتفوا بالرجوع إلى العقل ، والثانى أنهم لما ملكوا ونجحوا فعلوا فى حكمهم مثل ما فعل الأمويون والعباسيون من مظالم ونحوها ، فالفاطميون أسرفوا أيضاً فى الترف واستمتعوا فى مصر بكل أنواع النعيم كالذى روى عن هارون الرشيد .

وكانت ثروة الفاطميين تفوق القدر ويصعب تصديقها على العقل فيقول المقريزى مثلا إن رشيدة بنت المعز خلفت من العملة الذهبية نحو ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار عدا الجواهر والحلى ، وخلفت ابنته الأخرى واسمها عبدة نحو سبعمائة وخمسين ألفاً عدا الصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، كما أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بنحو اثنى عشر ألف دينار ، وأولعوا بالتصوير مع أنه محرم فى الإسلام فقالوا إن اثنين من المصورين كان ينافس أحدهما الآخر هما القصير وابن لعزيز ، أحدهما صور الراقصة فى ثياب بيض فى قوس ملون بالسواد يحسبها الناظر داخلة فيه والآخر صور فتاة بثياب حمر فى قوس أصفر يحسبها الناظر بارزة منه ؛ والخليفة

الظاهر كان يعكف على اللذائذ واللهو من خمر ونساء ويترك أمور الدولة لوزرائه وقواده وهم يقابلونه كل عشرين يوماً مرة ثم يدعى هؤلاء النواب أنه أوعز إليهم بكل شيء وأنه إمام معصوم متفرغ للعبادة . وقد كان يحدث هذا من الظاهر أيام كان الناس فى مصر فى مجاعة كبرى لا يجدون الخبز الضرورى .

ولقد بدأت الدولة الفاطمية فى مصر ببذخ وترف وانتهت بما يدلنا عل غاية البذخ والترف فبدأت بالهدايا التى قدمها جوهر للمعز وانتهت ببيع صلاح الدين ما وجده فى قصر المستنصر ، وكل هذا الترف والنعيم كان على حساب الشعب نفسه .

ولما حضر المعز أشار إلى طريقة حكمه إشارة مختصرة وهى سيفه وذهبه حتى ضرب المثل بسيف المعز وذهبه ؛ وليس حكم البلاد بواسطة السيف والذهب هو الحكم العادل الذى يطالب به المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا ، ونقرأ سيرتهم فى موائدهم واحتفالاتهم فنعجب من كثرة فخفختهم وعظمتهم وغناهم ، مع ما يحكى من فقر الشعب ، وكان للمعز مثلا يوم حج شمسية نصبت له مصنوعة من الذهب ، مزينة بالزمرد

الأخضر والياقوت وكتب عليها آيات الحج بزمرد أخضر وحشيت الكتابة بدر كبير لم ير مثله . حتى إنها لما جرت نصبها عدة فراشين لكثرة ثقلها . وصنع سرير الملك من الذهب واستعمل فيه مائة ألف مثقال . وعشرة آلاف مثقال ، وكل الحياة من هذا القبيل . . .

هذا من ناحية ترف الخلفاء الفاطميين وبؤس الشعب . ومن ناحية أخرى كم قتل الحاكم بأمر الله ، وكذا فعل غيره من الخلفاء ، ولما تولى الظاهر الفاطمى عكف على اللهو والملذات مما لا يقل شأناً عن ترف المترفين المستهترين من الخلفاء العباسيين ، ولما أزال صلاح الدين ملكهم وكل بالمحافظة على قصورهم الطواشى قراقوش وتسلم القصور وفيها من خزائن ودواوين وأموال ونفائس ما عظم عن الوصف وقد قالوا إن صلاح الدين أمر ببيع ما فى القصور فاستمر البيع فيها نحو عشر سنين وكان من الموجود فيها مائة صندوق من الكسوة الفاخرة الموشحة المرصعة وعقود ثمينة وجواهر نفيسه وكان فيها آلاف من العبيد والخدم وآلاف من الجوارى ليس فيهن فحل إلا الخليفة وأولاده ، وليس هذا الغنى المفرط إلا من دماء الشعب

الفقير البائس . وكان حكم القرامطة والحشاشين لا يقل شأناً عن هذا ؛ نعم إنهم كادوا يسوون بين الناس فى الغنى والفقر وكانوا يضربون الضرائب على الأغنياء ويصرفونها على الفقراء ولكن لهم ناحية أخرى سيئة جداً فى حكمهم وهى القسوة والقتل والتخريب والهدم وهى أعظم فظاعة من الغنى والفقر .

قال شاهد عيان يوم دخل القرامطة الكعبة رأيت رجلا قد صعد البيت الحرام ليقلع الميزاب ، وكنت أطوف بالبيت وإذا بقرمطى سكران قد دخل المسجد بفرسه فصفر له حتى بال فى الطواف وجرد سيفه يضرب به من لحقه ، وانهالوا مرة على قوافل الحجاج يسلبون وينهبون ويفسقون ويقتلون ، وأتى القرامطة من الأفعال ما تقشعر منه الأبدان وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الحلى الثمينة والتحف القديمة التى كانت معلقة على جدران الكعبة أو محفوظة فى خزائنها حتى قالوا إنهم استخدموا نحو خمسين جملا لنقل ما نهبوه من الكعبة فقط ، ومائة ألف ألف لما غنموا من مدينة مكة وضواحيها ، وكان مما نهبه القرامطة الحجر الأسود كما ذكرنا من قبل وخرجوا من مكة ينشدون علناً :

فلو كان هذا البيت لله ربنا　　لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهليــة　　محللة لم تبق شرقاً ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا　　جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

والحشاشون نكلوا بالبلاد تنكيلا فظيعاً وخوفوا العظماء وأرهبوهم ، والموحدون اضطهدوا ابن رشد الفيلسوف وسجنوه بعد أن أكرموه ، ومهدى السودان كان حاكماً مستبداً يقسو ولا يرحم وينكل بأعدائه وخصومه تنكيلا شديداً ، فحكوماتهم كانت تنعى على الظلم وتظلم ، وترتقب إماماً يملأ الأرض عدلا ثم هي تملأ الأرض ظلماً ، فلا رأينا عدلا من السنيين ولا من الشيعيين « وكلهم في الهم شرق » . والعدل الذى كان يقول به دعاة المهدى المنتظر لم يتحقق فى كثير ولا قليل ، ولكن ظلماً يقابل بظلم ، وشعباً يطمح إلى العدل فيخيب أمله ، نعم إن عقائد هذه الشيعة وأسرارها وما قيل عن تعاليمهم متناقضة ، فبينا يقول مؤيدو الإسماعيلية إنهم منعوا السكر وحتموا الزواج بواحدة إذا بخصومهم يرمونهم بشرب الخمر والاعتداء على النساء ، وقد زاد فى بلبلة الأفكار والتناقض فى ذكر المعتقدات قلة ما أثر عنهم من كتب وتعاليم . ولكن مهما اختلف المختلفون فى المعتقدات

فأمامنا الأعمال الظاهرة التى لا تشرف والتى لا يستطيع أحد أن ينكرها ، سواء أكان من المعارضين أم المؤيدين ، ولو كانت هذه التعاليم قد دخلت قلوبهم وأنهم يستمدونها من مهدى منتظر ومن إمام حق مستتر لانعكست عقائدهم على أعمالهم ، أما والأعمال سيئة فما قيمة المعتقدات ولو صحيحة ، فحكومات الخلفاء الرسميين لم تكن ترضى عاقلا ، وحكومات الشيعيين كذلك لم تكن ترضى عاقلا أيضاً ، والناس إنما يطمحون بعد هذا الفشل إلى إمام عادل يتبع العقل لا المهدى المنتظر ، وربما كان الفرق بين ظلم خلفاء بنى أمية وبنى العباس من جهة والشيعيين من جهة أخرى أن الأولين كانوا يظلمون ويجهرون والآخرين كانوا يظلمون ويستترون .

على العموم كان الخلفاء الرسميون يظلمون الشيعة وينكلون بهم وكان الشيعة يثيرون الثورات ويدبرون الدسائس والمؤامرات والنتيجة ظلم من هذا وظلم من ذاك .

فى ضوء هذا لا نستطيع أن نحدد المسئولية هل هى على أهل السنة أو على الشيعة ، ونحار كما حار أبو العلاء فى قوله :

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى

عنب وخمر فى الإناء وشارب　　فمن الملوم أشارب أم حاسى

وربما كان الأصح أنهما مسؤولان معا : هذا السنى بجوره وظلمه وسفكه لدماء العلويين من غير حساب . وهذا العلوى بالانتقام من غير وقوف عند حد . وكلاهما لم ينظر فى المسألة إلى مصلحة المسلمين وإنما نظر فيه إلى نفسه وحزبه ، والله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون .

ونحن إذا حللنا فكرة المهدوية إلى عناصرها الأولية وجدناها ترتكز :

١ — على الاعتقاد بإمام من آل البيت وأن هذا الاعتراف أساس من أسس الإيمان كالاعتقاد بنبوة محمد . روى عن أبى حمزة قال : قال لى أبو جعفر إنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرفه فقد ضل ضلالا بعيداً . قلت جعلت فداك فما معرفة الله . قال تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله ، وموالاة على ، والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم . وليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً ، وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله . فالعقيدة فى الإمام ركن

سادس من أركان الإسلام .

٢ ـ عصمة الأئمة وعصمة المهدى المنتظر فالأئمة لايذنبون بطبيعتهم ولا يفكرون فى ذلك . وقد ثارت خلافات فى عصمة الأنبياء بالطبيعة ورووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة ، وقال : إنه ليغان على قلبى . فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة ، ولكن الشيعة لا يختلفون فى عصمة الأئمة .

٣ ـ علم الأئمة والمهدى بالمغيبات مع أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : مالى ولهم يسألوننى عما لا أرى ، وإنما أنا عبد لاعلم لى إلا ما علمنى ربى . وفى القرآن الكريم « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

٤ ـ الاعتقاد بأن للأئمة نوراً إلهياً أو قبساً من نور الله على نحو يرفعهم فوق المستوى البشرى المألوف وغلا بعضهم فى ذلك فرأوا أن علياً والأئمة هم صور وأشكال يتمثل فيها الجوهر الإلهى وأن جثمانية هذا الجوهر ليست إلا حادثاً طارئاً .

٥ ـ أن هؤلاء الأئمة ومنهم المهدى إنما جاءوا ليواجهوا الدهر ويرفعوا الظلم ولذلك اقترنت دائما كلمة يملأ الأرض عدلا بكلمة

كما ملئت جوراً .

وقد كان لبعض الناس فى عقيدة المهدوية خرافات غريبة ، من ذلك أن بعضهم كان يخرج كل يوم إلى مكان معين قبل طلوع الشمس ينتظر مجىء المهدى لأن بعض الأساطير فيها تحديد مكان الخروج وزمانه فإذا لم يجدوا شيئاً عادوا منكسى الرؤوس .

ومنها ما حكاه ابن خلدون أنهم كانوا يحسبون خروج الإمام بحساب الجمل فيحددون زمان خروجه فإذا جاء هذا الوقت ولم يخرج ادعوا أن هذا التاريخ تاريخ ولادته لا تاريخ خروجه .

على كل حال فإن هذه العقيدة فى المهدوية وصفاتها لا تتفق وطبيعة الأشياء، فأى خليفة معصوم وأى إنسان يعرف الغيب وأى إنسان يختفى ويبقى مختفياً مئات السنين من غير أن يجرى عليه الله حكم الموت ثم يكون عنده دائماً عينان نضاختان فيهما عسل وماء ؟ . . هذه الأشياء كلها لا تجوز إلا على السذج الذين فقدوا عقولهم . . . وأظن أن انتباه الرأى العام وتعقله يقللان فى المستقبل من تكرار مأساة المهدوية .

وقد نشأت عقائد ثانوية على هامش المهدوية من أهمها :

١ — أولا فكرة التجديد والمجددين وهى تلاقى ما عند المهدية من أن المهدى يخرج ليلاقى أحداث الزمان ويرفع الظلم ويحقق العـــدل .

٢ — فكرة الصوفية فى القطب والغوث والأبدال ، فهى فكرة تلاقى ما يقوله أصحاب النظرية المهدوية فى أن المهدى أفاض عليه الله من نوره وأناله قبساً منه . وسنشرح كل نظرية من هذه النظريات بكلمة تبينها .

فأما التجديد والمجددون فستند إلى حديث رواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . والفكرة فى ذاتها وجيهة لأن التشريع دائماً يتغير بتغير الزمان والمكان ، وفى الفقه أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، فقد رووا أن أبا حنيفة كان يقول من غصب ثوباً وصبغه أسود فقد قلل من قيمته ، وكان أبو يوسف يقول من غصب ثوباً وصبغه أسود فقد زاد قيمته ، والسبب فى ذلك اختلاف الزمان والبيئة لأن الدولة العباسية اتخذت السواد شعاراً رسميا لها وكان من خالفها يبيض أى يلبس البياض فارتفع

بذلك سعر الملون باللون الأسود ، وقال الفقهاء أيضاً فى الأزمنة القديمة كان الرجل إذا رأى غرفة فى البيت سقط عنه خيار الرؤية لأن الغرف كلها متشابهة فى الشكل وبعد ذلك اختلفت البيوت فأصبح لا يسقط عن الرجل خيار الرؤية إلا إذا رأى الغرف كلها لاختلاف هندسة الغرف،والإمام الشافعى نفسه له مذهب قديم لما كان فى العراق ، ومذهب جديد لما حضر إلى مصرلاختلاف البيئة، بيئة العراق وبيئة مصر،وهذه إحدى العلل الكبرى لمشروعية النسخ،وهى أن الزمن يتغير فيقتضى ذلك تغير التشريع ، وقد أخذ الفقهاء والمؤرخون يبحثون فى كل مائة سنة عمن يصلح أن يكون مجدداً؛ قالوا إنه على رأس المائة الأولى كان عمر بن عبد العزيز والثانية الشافعى والثالثة ابن سريج أو الأشعرى والرابعة أبو حامد الأسفرائينى والخامسة الغزالى والسادسة الفخر الرازى والسابعة ابن دقيق العيد وهكذا ، والحق أن هذا التحديد نسخ للفكرة الصحيحة ، تجديد التشريع كلما تغيرت الظروف ، وقد يكون ذلك فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل فليس من الضرورى تحديد المائة بالوزن أو بالمتر وإنما فائدة الحديث بيان الفكرة، وذلك

لا يكون فى التشريع وحده بل يكون فى كل مرفق من مرافق الحياة الاجتماعيـــة .

وهذا التجديد معناه مرونة العقل لإحلال الأوضاع الجديدة محل الأوضاع القديمة أو تعديل الجديد ليتفق والقديم ، وكانت تتوارد على الشيخ محمد عبده أسئلة جديدة لم يتعرض لها الفقهاء من قبل لأن البيئة خلقتها خلقاً جديداً مثل قراءة القرآن فى الراديو ولبس البرنيطة والتأمين على الحياة وإيداع المال فى صناديق التوفير وهكذا مما لم يكن معروفاً من قبل ، وقد عرف چان چاك روسو التجديد بأنه « الأخذ بالمبادئ الإنسانية والمبادئ العقلية والتسامح الفلسفى وإحلال ذلك محل الأوضاع القديمة ومحل تقديس السلطات ومحل التعصب الضيق النظر . » ويكون التجديد فى كل حالة بحسبها ، وقد يجد دعاة التجديد أنفسهم أمام تيارين متناقضين فيضطرون إلى منازلتهما جميعاً كالذى حدث فى عصرنا فى مذهب الاشتراكية إذ رأى أصحابها أنهم مضطرون إلى منازلة فكرة الشيوعية المتطرفة وفكرة الرأسمالية الجامدة . ويساعد على فكرة التجديد شعور الشعوب بسوء الحال وطموحهم إلى حال خير من حالهم ونظام خير من نظامهم ،

وعدل يحل محل ظلمهم لتسرى الدعوة إلى التجديد وإلى التعمير سريان النار فى الهشيم. ووصف سوء الحال وبث الطموح إلى خير منه هما أهم ما دعا إلى إثارة الشعوب لدعوة المهدية .

والناس فى قبول دعوة التجديد مختلفون فهناك جماعات أشد مقاومة للتجديد وجماعة أشد تلبية لها . ذلك أن الجماعات التى تكونت حديثاً ولم تتقيد بقيود ثقيلة من الأوضاع كأمريكا تكون أقرب إلى التجديد ، ومن كثرت أوضاعهم وقدمت كانوا أشد بطئاً فى قبول فكرة التجديد ، وما مظاهر القلق والاضطراب فى الأمة إلا مظاهر حرب بين جديد وقديم، وبعبارة أخرى بين قديم ظهر فساده وجديد لم يرتكز بعد، ومن المظاهر البينة أن مرافق الحياة جديدها وقديمها فى كل شعب تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية حتى يتم بينها الانسجام فإذا دخل التجديد فى مرفق فسرعان ما تنفعل لذلك سائر المرافق كحوض الماء يصب فيه ماء بارد وماء ساخن ، فسرعان ما يكتسب البارد السخونة والساخن البرودة حتى يتكون منهما ماء فى درجة حرارة واحدة ؛ والفرق بين الدعوة إلى التجديد والدعوة إلى المهدية أن الأولى ترتكز على العقل وعلى تجارب الحياة وعلى الواقع ، أما الدعوة

الثانية فترتكز على عقيدة دينية فقط بإمام منتظر ، وأن السلطة السماوية هى التى تقربه وهى التى تؤيده . . .

وأما فكرة الصوفية فى القطب والأبدال فهى أن الصوفية كما تأثرت بالإسلام تأثرت أيضاً بتعاليم الفلسفة وخصوصاً الفنوسطية والأفلاطونية الحديثة وخلاصتها أنه فى القرن الثانى الهجرى حينما ترجمت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية اندس من بعض الجهات أو تسربت فكرة من الأفلاطونية الحديثة من مثل نظرية الفيض الإلهى والفناء فى الله وتأويل آيات القرآن بالرموز المعنوية ، فهم إذا سمعوا قوله تعالى مثلا « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » أولوها بأن لها تفسيراً باطنياً هو أن المرسلين الثلاثة هم الروح والقلب والعقل ، وأن الاثنين الأولين هما الروح والقلب وهما اللذان كذبوهما وأن الثالث هو العقل — وكالاعتقاد فى نظرية الفناء فى الله وشرطهم أن الإنسان يجب أن تتلاشى شخصيته ، وينعدم شعوره بوجوده كالذى قال

« دعني أفنى كما تفنى الأنغام فى العود فإننا إليه نعود » وهم يدعون إلى فناء الفرد فى الذات الكلية الإلهية ولا يستطيع المكان ولا الزمان أن يحد هذه الذات المتناهية، وللمريد درجات فى الفناء يترقى إليها شيئاً فشيئاً ، ووسيلة ذلك عمق التأمل ، وبعبارة أخرى المراقبة الدقيقة لحالات النفس، وينتهى به ذلك إلى غاية هى أن يصبح المتأمِّل والمتأمَّل فيه شيئاً واحداً وهذا هو التوحيد الصحيح .

هذه النزعة وأمثالها هى بعض نزعات الصوفية وبعضهم يرى أنها لا تتنافى – بل يجب أن تكون – مع التزام الشعائر الظاهرة من صلاة وزكاة وصوم وحج ، وبعض الفرق يرى أن هذه الشعائر الظاهرة ليست إلا وسائل لغاية ، فمتى حصلت الغاية فلا لزوم لها وأن من حق الصوفى أن يتخطى كافة النواميس الخلقية ، وأن يخرج على العرف الاجتماعى .

على كل حال اندس إلى الشيعة والصوفية معاً بعض هذه التعاليم وتلاقيا فى بعض هذه المظاهر فكما اعتقد المهدية فى المهدى واختفائه وخروجه ليملأ الأرض عدلا اعتقد الصوفيون أن هناك مملكة روحانية منظمة تنظيما دقيقاً وهى وراء

هذه المملكة الظاهرة، كما اعتقد الشيعة أن لهم أئمة غير الأئمة الرسميين من أمويين وعباسيين وغيرهم، وسمى الصوفية رؤساء هذه المملكة بأسماء خاصة كالقطب والغوث والأبدال، فالقطب يمثل الإمام أو الخليفة وهو على رأس المملكة الروحانية وأحياناً يسمونه قطباً وأحياناً يسمونه غوثاً فإذا سموه قطباً فباعتبار مركزه فى المملكة الروحانية وأنه على رأسهم ، وإذا سموه غوثاً فباعتباره ملجأ الملهوف ، وقد عرفوه بأنه موضع نظر الله فى كل زمان أعطاه الله الطّلسم الأعظم من لدنه وهو يسرى فى الكون سريان الروح فى الجسد وبيده قسطاس الفيض الأعم وهو يتبع علمه وعلمه يتبع الحق وهو يفيض روح الحياة على الكون ومرتبته تسمى القطبية وهو باطن روح النبوة ولا تكون القطبية بعده إلا لورثته وليسوا ورثته لصلبه ولكن ورثته ممن يستحقون هذه الولاية، وله فى المملكة الروحانية نواب يسمون الأبدال وكل إقليم له بدل خاص يشرف على شئونه وهكذا رسموا معالم هذه الولاية الروحانية وقسموا أعمالها وقالوا إنها لروحانيتها معصومة كعصمة الأنبياء والأئمة وهاموا فى ذلك ما شاء لهم الخيال فهم يضعون الخطط للعالم الظاهرى ليفعل ما يفعل ويترك ما يترك

فسموا كثيراً من كبار الصوفية بقطب الأقطاب والقطب الربانى ونحو ذلك ، وسموه أيضاً بمجمع البحرين لأنه يجتمع فيه بحر الوجوب والإمكان وتجتمع فيه الأسماء الإلهية والحقائق الكونية إلخ . . . فكم من القرب بين تعاليم الصوفيه وتعاليم الشيعة فى هذا الباب وكذلك بين تعاليم الصوفية وتعاليم المهدوية.

وقد عقد ابن خلدون فصلا قيما فى المهدى والمهدوية ، ذكر فيه الأحاديث التى وردت فى المهدى مثل ما رواه جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب » ومثل ما رواه الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا منى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى »، ومثل حديث عن على عن النبى قال: « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى ، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً » ، ومثل ما رواه الحاكم عن أم سلمة قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدى ويقول : هو حق وهو من بنى فاطمة »،وعن أبى سعيد الخدرى قال: « قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : المهدى منى ، أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً ، إلخ . . . » وقد ضعف ابن خلدون أسانيد هذه الأحاديث ، وروى حكايات عن جماعات كثيرة ، قالوا بدعوى المهدية وأن أكثرهم فشل فى دعوته فقتل أو هرب ، ثم ذكر علاقة فكرة المهدى بالمتصوفة فقال : « إن المتقدمين منهم لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا وإنما كان كلامهم فى المجاهدة بالأعمال ثم كان كلام الإمامية من الشيعة فى تفضيل على والقول بإمامته وادعاء الوصية له ، ثم حدث بعد ذلك القول بالإمام المعصوم ، وجاء آخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بواسطة التناسخ ، وآخرون يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول فتسرب هذا إلى الصوفيه فقالوا بالقطب وقالوا بالحلول كالذى كان من الحلاج وأشباهه ، ويقول إن المتصوفة الذين عاصروا ابن خلدون أكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره . . .

ومن رأى ابن خلدون أن من نجح من دعاة المهدية يرجع نجاحه لا إلى أسباب دينية وتنبؤات ونحو ذلك وإنما يرجع

إلى أن له عصبية قوية تحميه وتدافع عنه ، كالذى حدث للفاطميين والقرامطة وغيرهم ،وأما من فشل منهم ففشله يعود إلى ضعف عصبيته ، ولذلك كان منهم من قتل ومنهم من هرب وذلك وفاقاً لنظرية ابن خلدون التى أثبتها فى محل آخر وهو أن الملك لا يقوم إلا على أساس من العصبية وعلى هذا قامت دولة بنى أمية لتعصب الأمويين لها ، وقامت دولة بنى العباس بتعصب الخراسانيين لها ، وهذا هو السر فى الحديث المأثور « الأئمة من قريش » والسر فى ذلك عصبية القرشيين لهم ، ولذلك تدور العلة مع المعلول فإذا كانت هناك عصبية أقوى من عصبية قريش فصاحبها أولى كالجنود الأتراك الذين كانوا يتعصبون للمعتصم ، ونحو ذلك من الجنود المصطنعة، فالمهدية أيضاً قامت على أساس هذه العصبية وقد قواها إلصاق المهدية بالدين ، والناس للدين أكثر انقياداً .

وقد قرأت رسالة للأستاذ أحمد بن محمد بن الصديق فى الرد على ابن خلدون سماها « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون » وقد فند كلام ابن خلدون فى طعنه على الأحاديث الواردة المهدى وأثبت صحة الأحاديث ،وقال إنها بلغت حد

التواتر ونقل أحاديث أخرى لم يذكرها ابن خلدون وكان من رده عليه ، أن ابن خلدون قال إنه لم يخلص من هذه الأحاديث التى وردت فى المهدى إلا القليل أو الأقل منه ، فسأله فى صراحة وماذا تصنع بذلك القليل ، هل لا يؤمن بالقليل إلا إذا شتهر أو تواتر ؟ كلا لا يمكن ذلك لأنه لا يرى هذا الرأى ولا رآه أحد قبله ولا بعده ، ثم نقده أيضاً فى أنه احتج فى مواضع أخرى من تاريخه بأحاديث أفراد ليس لها إلا مخرج واحد وفى ذلك المخرج مقال ، أتراه إذا وافق الحديث هواه قبله ولو كان حديث آحاد ، وإذا لم يوافق هواه لم يقبله ولو كان صحيحاً ؟ ؟ ثم رد عليه فى دعواه نسبة رأى بعض الصوفية فى الحلول وأنه مستقاة من الشيعة بأن هذا غير صحيح وأن ابن خلدون لم يفهم معنى الحلول ، ثم قال إنه يؤمن بأحاديث المهدى لما ورد فيه من الأحاديث الصحيحة والحسنة وأن ابن خلدون مبتدع والمبتدعة أقسام ، منهم من كفر ببدعته كالمجسم ومنكر علم الله للجزئيات ، ومنهم من لا يكفر ببدعته وهو من ابتدع شيئاً دون ذلك وربما عد ابن خلدون من هذا القبيل . وقد أطال فى ذلك وخالف ابن خلدون فى دعواه الكذب أو الضعف

فى كل من روى عنه ابن خلدون ، وروى عن جماعة من أهل العلم ، قالوا شعراً فى المهدى يثبتون وجوده ، مثل :

وخـــبر المهدى أيضاً وردا ذا كثرة فى نقله فاعتضدا

ومثل قول السيوطى :

وما رواه عـــدد جم يجب إحالة اجتماعهم على الكذب

... إلخ إلخ

فلئن كان ابن خلدون قد قال بضعف الأحاديث الواردة فى المهدى إلا أقلها فإنه اعتمد فى رد هذا لا على السند وحده ولكن على مخالفة المتن لحكم العقل أيضاً، والظاهر أن مذهب ابن خلدون قبول خبر الواحد إذا أيده حكم العقل ورفض الأحاديث الكثيرة إذا لم يؤيدها العقل وهذه بعينها كانت طريقة كبار المعتزلة كالنظام وأبى الهذيل العلاف، فلهم فى الحديث طريقة خاصة غير طريقة المحدثين ، فالمحدثون يعتمدون فى النقد والإثبات على السند وحده، أما المعتزلة وعلى رأسهم ابن خلدون فيعتمدون على نقد السند ويحكمون العقل فى المتن ، ولا سيما أن كل الحسابات التى بنيت على ظهور المهدى فى وقت معين وفى مكان معين استناداً على اليازرجات والملاحم والتنبؤات

وحساب الجمل ظهر كذبها ولم يصح منها شيء فكل حركة من حركات المهدية سواء منها ما نجحت وما لم تنجح قد قضى عليها إما فى مهدها أو بعد قرون قصيرة أو طويلة وما نجح منها كالفاطميين والقرامطة والحشاشين لم يملأوا الأرض عدلا كما ملئت ظلماً على حساب دعواهم ، بل كان مثلهم مثل غيرهم وكانوا فى مدة حكمهم محتاجين هم أنفسهم إلى مهدى آخر يذهب بظلمهم ، ونحن نعلم من التجارب أن الله جعل للعدل والظلم قوانين اجتماعية كالقوانين الطبيعية للأشياء، والقوانين الاجتماعية هذه ليس منها إمام مستتر يعيش مئات السنين وهو فى استتاره يحرك أتباعه ليزيلوا المظالم ، إنما الطريق الطبيعى هو ظهور مصلح اجتماعى يشعر الناس بالألم من الظلم والطموح إلى العدل فيضطهد ويعذب ولا يزال أتباعه يكثرون وكلما عذب أمام الناس ازدادت دعوته قبولا ، حتى يقوى فيزيل المظلمة أو المظالم التى دعا إلى إزالتها ويحل الصالح محل الفاسد .

وقد قرأت رسالة أخرى فى هذا الموضوع عنوانها « الإذاعة لما كان وما يكون بين يدى الساعة » لأبى الطيب بن أبى أحمد

ابن أبى الحسن الحسينى ذكر فيها أيضاً أقوال ابن خلدون ورد عليه وعد أقواله زلة زلها وليست من التحقيق فى شىء واستخلص أخيراً أن المهدى يظهر فى آخر الزمان وأن إنكار ذلك جرأة عظيمة وزلة كبيرة .

وأما السنيون فعقيدتهم فى المهدى أقل خطراً لأنهم يعتقدون أنه من أشراط الساعة كالمسيح والدجال وأنه لا بد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الإسلامية ويسمى المهدى ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة على أثره ، ثم ينزل عيسى فيقتل الدجال ثم يأتم عيسى بالمهدى إلى غير ذلك .

ولكن لما كانت الساعة أو آخر الزمان غير معلوم الوقت كان كل خارج يدعى أنه المهدى وأنه علامة آخر الزمان إلى غير ذلك — وقد كتب الإمام الشوكانى كتاباً فى صحة ذلك سماه التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر والدجال والمسيح .

وأنا ممن يرى رأى ابن خلدون فى ضعف هذه الأحاديث المهدوية وفى أن من نجح من المهديين ، إنما نجح لكثرة أتباعه

وقوتهم ، وفشل من فشل لقلة أتباعه وضعفهم ، ولسنا ننصر ابن خلدون لسنيته ولا نضعف خصومة لشيعتهم .

إنما نقبل ما نقبل ونرفض ما نرفض للحق وحده حسبما نعتقد وكلام ابن خلدون أقرب للعقل ، ولئن كانت الأحاديث المروية عن المهدى قد ضعفها ابن خلدون لسندها فهناك وجه آخر لتضعيفها ، وهو عدم ملاءمتها للعقل إذ كيف يعقل إمام معصوم يخرج فى زمان قد حدد وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً ، بل إن الواقع أيضاً ينافى ذلك ، حتى إن من نجح من دعاة المهدية وأسس دولة لم يحقق عدلا ولم يرفع ظلماً ، بل كان الثائرون والمثور عليهم على دين واحد وسياسة واحدة ، كما بينا ذلك .

وقد نظم الصوفية — كما قال ابن خلدون — مملكة باطنية على نظام المملكة الظاهرية ولقبوا أصحابها ألقاباً منهم الأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء وعلى رأسهم القطب ، وهم يرتقون فى المناصب كما يرتقى الموظفون ، وهذا القطب يعلم ما كان وما يكون وقد سئل أحمد بن تيمية : « هل فى الوجود طائفة من أولياء الله يقال لها الأوتاد وأخرى يقال لها الأبدال ، وغيرها يقال لها النقباء ، وخلافها يقال

لها النجباء ، ورئيس على الكل يقال له القطب الغوث الفرد الجامع ، فقال إن إطلاق هذه الأسماء من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان ، بل ذلك كله كذب وضلال لا أصل له فى كتاب الله ، ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم ، والله تعالى يقول : "قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله"، ويقول: "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب"، ويقول: "قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسنى السوء"..." وقد قال الوهابيون بقول ابن تيمية هذا ، وقد أقام بعض الصوفية مراسيم كمراسيم الدولة الظاهرية وقالوا : إنه تجب لصحة القطب أن يبايع فى دولة الباطن ، كما يبايع الخليفة فى دولة الظاهر ، وقد قال ابن الجوزى إن أحاديث الأبدال كلها موضوعة ، وهؤلاء الأبدال الذين يزعمون أنهم أربعون كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وقد ربطوا هذه الأخبار عن الأقطاب والأبدال وغيرهم بأخبار الخضر إذ كان يعلم علم

الباطن على حين موسى عليه السلام كان يعلم علم الظاهر ، وزعموا أنه حى مستتر فى كل زمان !.

وأخيراً نقرأ فى الدولة العثمانية نظام الفتوة وتعاون بعضهم مع بعض وفرقة البكطاشية والنقشبندية ونحو ذلك من نظم سرية وتعاليم خفية فنسمع منها صدى لأنظمة الإسماعيلية ودعواتهم بل ربما كانت صدى لتأثير المبادئ الإسماعيلية فى أوربا فهناك ما يشبه تعاليمهم فى نظم الأديرة والجمعيات ، بل ربما كان للقرامطة تأثير بين فى نظم الرهبنة اليسوعية وربما تكشف الأيام عن ذلك ، وقد كان من مبادئ القرامطة فرض ضرائب على الفقراء لتوزع على المرضى والمحتاجين منهم عند الضرورة وهو شىء يشبه عمل النقابات الحديثة وكم نقل الصليبيون فى حروبهم مع المسلمين من أنظمة فلعل منها النظام الإسماعيلى والديموقراطى الذى ساد الجمعيات الأوربية .

من هذا نرى كيف لعبت المهدوية فى تاريخ الإسلام وإصابته مع الأسف بمصيبتين كبيرتين : إحداهما إضعاف شأن المسلمين إضعافاً كبيراً بهذه الثورات المتتالية ، وثانيتهما بنشر هذه الأساطير والأوهام بينهم مما أضعف عقولهم ،

وهما ضرران كبيران . وكثيراً ما يعتقد الناس الاتصال فعلا بالمهدى وتلقى تعاليمه كالذى رواه الشعرانى من أن هناك اجتماعات روحية صوفية وأنه كان أحد أفراد هذه الجمعية وهو صديق للشعرانى واسمه الشيخ حسن العراقى أفضى إليه بأنه وهو فى حداثته كان يقيم فى دمشق وأنه أضاف المهدى أسبوعاً عنده وأخذ عنه أساليب الذكر والزهادة وأنه يستفسر من المهدى عن كل ما أشكل عليه وأن هذا الاتصال سبب له طول العمر فقد كان سن العراقى عندما تحدث بهذا الحديث يبلغ من العمر ١٢٧ سنة .

وقد ساح بعد ذلك إلى الهند والصين ثم رجع إلى مصر ومنعوه من دخولها ، وهناك قصص كثيرة حول الاتصال بالمهدى والأئمة المختفين وقد كانت هذه الفكرة تملأ أذهان الناس حتى استفتى فيها ابن حجر الهيثمى وكان السؤال يدور على أنه سئل عن طائفة يعتقدون فى رجل مات منذ أربعين سنة أنه المهدى المنتظر الموعود بظهوره آخر الزمن ويعتقدون أن من أنكر مهديته فقد كفر فما قوله فى ذلك، وقد سبب ذلك أنه وضع كتاباً فى أحاديث المهدى والمهدوية سماه « القول المختصر فى

علامات المهدى المنتظر » .

وقد كان من جراء ذلك أن ألقى درساً كبيراً فى هذا الموضوع فى مكة حين حج ، وقد ذكر بعض المستشرقين فى كتاب ألفه عن فرق الإسلام أن بعض رجال الهنود ظهروا فى الهند وادعوا المهدية بينهم رجل يدعى الشيخ محمد الجونبورى دعا هذه الدعوة ونفى من بلاد الهند وتوفى سنة ١٥٠٥ ، إلى كثير من أمثال ذلك وعلى الجملة فقد كانت هذه الحركة المهدوية حركة دائمة لا تنقطع فى إثارة الفتن والقلاقل ، ولو كان قد من الله على المسلمين بفنائها لتغير وجه تاريخهم ، ونرجو أن التنبه الحديث والوعى القومى الكبير يقضى على هذه الأساطير .

وربما كانت ثورة المعرى الفكرية سببها ما شاع فى أوساطه من الدعوة إلى الإمام والمهدى المنتظر وتلقى التعاليم عنه ، فثار أبو العلاء على ذلك وقال إنه لا يؤمن بإمام ولا مهدى وإنما يؤمن بالعقل ، ولذلك أكثر فى تقدير العقل وإحلاله أعلى مكان وقال فى ذلك أبياتاً كثيرة من أوضح ذلك قوله :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

فالإمام الذى يشير إليه هو ما كان يشاع فى محيطه من مهدى منتظر فقال كذب الناس إنما الإمام هو العقل وقوله :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن — إلا وعندى من أخبارهم طرف
يخبر العقل أن القوم ما كرموا — ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلا وماجوا فى ضلالتهم — ولا يفوزون إن جوزوا بما اقترفوا

وقولــه :

خذوا فى سبيل العقل تهدوا بهديه — ولا يرجون غير المهيمين راج
ولا تطفئوا نور المليك فإنه — ممتع كل من حجى بسداد

وقولــه :

ساس الأنام شياطين مسلطة — فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم — إن بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقــال :

رويدك قد غررت وأنت حر — بصاحب حيلة يغظ النساء
يحرم فيــكم الصهباء صبحاً — ويشربها على عمد مساء

. . . إلخ

فهو يصور قيام الدعاة إلى إمام مستتر وظلم الناس وفسادهم ويدعو إلى استعمال العقل كما أمر الله .

• • •

وأخيراً أطلقت فى مصر كلمة المهدى على من أسلم وكان هو أو أبوه نصرانياً ويسمونه فى سوريا المهتدى بدل المهدى وذلك كالشيخ المشهور بالشيخ محمد الحفنى المهدى وقد كان من قوم أقباط فأسلم وتعلم فى الأزهر وما زال يتفقه حتى ولى الجامع الأزهر ، وكان يتداخل فى الأمور واتصل بالفرنسيين عند دخولهم ، ولما رتبوا الديوان الذى يجرى الأحكام بين المسلمين جعلوه فى ديوانهم ، وكان هو المشار إليه وكان الناس يقصدونه فى الحوائج ويمشون حوله وأمامه وتقبل شفاعاته ويأتى إليه الفلاحون بالهدايا من أغنام وسمن ونحو ذلك وأثرى ثراء عظيماً واستمر فى مشيخة الأزهر والتدريس فيه واختاره محمد على باشا ليسافر مع ابنه طوسون إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين ، ولما رجع انتقض عليه الأزهر فعزل إلى آخر ما كان . وممن لقب بهذا اللقب شيخنا الأستاذ محمد المهدى وكان أستاذا لنا فى مدرسة القضاء وأحد تلاميذ الشيخ محمد عبده المقربين إليه وقد كان من أصل

نصرانى ولذلك كان يسمى الشيخ محمد المهدى زيكو .

هذه الثورات الذى ذكرناها هى النتائج المادية لفكرة التشيع وفكرة المهدية .

وهناك نتائج بعيدة المدى، فهناك أفكار شيعة ومهدوية تسربت إلى العلوم والفنون حتى يصعب على الباحث المدقق استخراجها، نجدها فى التفسير وخاصة التفسيرات الرمزية لبعض الآيات القرآنية ، وفى الأحاديث التى وضعت بإحكام كبعض أحاديث رواها الحاكم وغيره فى أخبار المهدى وموعد ظهوره وكونه من أشراط الساعة وغير ذلك، وهناك الآراء المنسوبة إلى التصوف وتطبيقهم فكرة المهدى على فكرة الأقطاب، وكأفكار الحلاج فى الحلول تشبيهاً لما قاله المهديون فى الأئمة ، وهناك تعاليم القرامطة والفاطمية فى أشعار المتنبى وابن هانئ وغيرهما . وكلما جد الباحثون أمكنهم بعد التدقيق أن يربطوا بين أشعار للشعراء ومعان للتشيع قريبة الشبه . وإن الفنون فى بعض الأحيان تنزع فى بعض تصميماتها إلى فن فارسى شيعى كالمحاريب المقرنصة وكطابع الخشب المحفور ورسم النباتات والحيوانات التى تتعارك ، أما التاريخ فقد عبث به كل العبث فترى نزعة مهدوية شيعية

تلون الأحداث تلويناً زاهياً بديعاً، ومن سنى يلونها تلويناً أسود قاتماً كالذى رأينا فى نسب الفاطميين إلى فاطمة، منهم من يؤمن بصحته كل الإيمان ومنهم من ينكره كل الإنكار، وكل .ـ.م يستخرج الباحثون تسرب القضايا الشيعية إلى العلوم والفنون المختلفة وحتى النحو نرى فيه هذه النزعة أيضاً كنسبة وضعه إلى أبى الأسود الدؤلى عن على بن أبى طالب ومثل تمثيلهم بقولهم قضية ولا أبا حسن لها إلخ . . .

وعلى كل حال فلعل للمسلمين عبرة من هذا التاريخ الطويل المحزن – وتطور الأحوال يدلنا على أن الزمان قد تغير وتغيرت العقليات فأصبح لا يجوز على العقول أمام مختف أو مهدى منتظر وحل القادة والمصلحون والزعماء محل الأولياء وحل الإقناع بالحجج محل الإرهاصات والتخرصات . والدعوة إلى الإصلاحات محل التنبؤات والتكهنات والاعتماد على اليازرجات والتنجيمات وكلما كبر العقل وزاد الوعى قلت الأوهام .

إن عقلية الجيل الحاضر التى تتحرى الأخبار وكشف الأستار والإصغاء إلى الرأى وما يؤيده وما يعارضه لا يمكن أن تؤمن بإمام معصوم يعيش فى الخفاء ويوحى من وراء ستار بالأوامر

والنواهى ولذلك كفر أبو العلاء الذى تقدم زمنه بالإمام المعصوم وقال لا إمام إلا العقل ولا سلطان إلا سلطان العقل وأشاع فى لزومياته عدم تقديس الإمام وأفاض فى ذلك كما رأينا إذ رأى ما حوله من البلاد يخضع للحمدانيين التابعين للفاطميين ويخضع لداعى الدعاة وقول الدعاة بإمام معصوم فقابل الإلحاح بالإلحاح والدعوة إلى الخفاء بالدعوة إلى المكشوف .

والحق أننى لم أقصد ببحثى هذا إلا الحق لا تأييداً لسنيين ولا حطاً من شيعيين فكما نقدت الشيعيين فى دعوتهم وسلوكهم أيام مكن لهم فى الحكم نقدت الخلفاء السنيين فى اضطهادهم للعلويين والتنكيل بهم تنكيلا شديداً فلا فرق عندى بين مذهب ومذهب ، وإنما الحق أردت وبحثت بحثاً تاريخياً بقدر ما يمكننى من التحقيق وقد يكون هناك لوم علىّ فى أنى اعتمدت فى أكثر ما اعتمدت على الكتب السنية التى وصفت عقائد الشيعة . وعذرى فى ذلك أن المصادر الأصلية عن الإسماعيلية والقرامطة وتعاليم الفاطميين والموحدين قليلة بالنسبة لى . ومهما كانت عقيدتهم فلا ينكر منصف نقدهم فى سلوكهم خصوصاً وأنهم دعاة العدل المنفرون من الظلم .

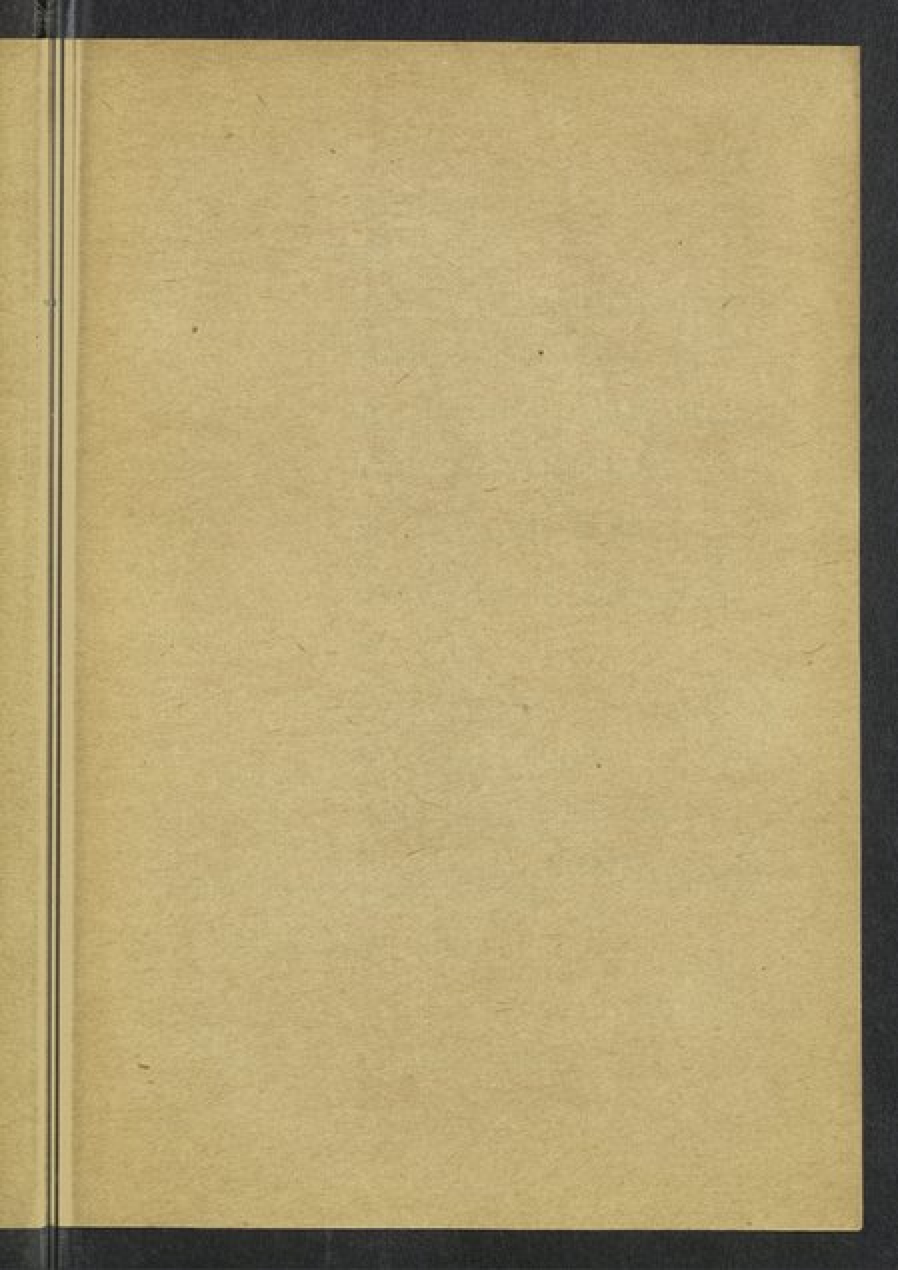
وأحب أن أفرق بين باحث يبحث المسائل من حيث تاريخها وتأثيرها السياسى والاجتماعى وبين داع يخطب فى تأييد مذهب أو نقده فالمؤرخ لا يهمه ماذا فعل أهل هذا المذهب وهل هم على حق أو باطل ، إنما يهمه البحث التاريخى مهما كانت النتائج سوداء أو بيضاء وإذا نقد فيجب أن ينقد إما لضعف سنده أو غلطة فى الاستنتاج ولا ينقد على أساس العواطف التى تواضع أهل المذهب عليها . أما الداعى فإنما يدعو لغاية معينة ويحاول أن يفسر ما كان ضده على حسب مايهواه لا على حسب الحق ، لهذا أسف كل الأسف إذا كان فى كلامى فى هذه الرسالة أو فى فجر الإسلام وضحاه وظهره مايغضب إخواننا الشيعيين ، وأقرر لهم أن هذه النتائج نتائج تاريخية لا نتائج دعاية فليتقبلوها على ما هى عليه وليس أحب إلى نفسى مع هذا من القضاء على العداوة بين السنيين والشيعيين . فما أحوجنا إلى الصداقة خصوصاً فى هذا الزمان ومن أجل ذلك رحبت بالانضمام إلى جماعه التقريب لأنه غاية ما أتمنى ، ولست أريد إثارة فتن جديدة إلى الفتن القديمة ، وإنما أردت أن أبين وجه الحق للعلماء والباحثين .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

جدول تاريخى لأهم الأحداث المتصلة بفكرة المهدوية

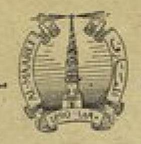
سنة بالتاريخ الميلادى	
٦٥٦ — ٦٦١	خلافة على
٦٨٠	مقتل الحسين فى كربلاء
٦٨٥ — ٦٨٧	ثورة المختار فى العراق
٧٦٢ — ٧٦٣	ثورات العلويين فى العراق والمدينة
٨٦٠	ظهور القرامطة
٩١٠	عبيد الله المهدى و بدء الدولة الفاطمية
٩٢٨	القرامطة يدخلون مكة ويحملون الحجر الأسود
٩٤٤ — ٩٦٧	سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب
٩٩٦ — ١٠٢١	خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى
١٠٧٢ — ١٠٩٢	وزارة نظام الملك

سنة	
١١٠٧ — ١١٣٠	دولة الموحدين
١١٧١	قضاء صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية .
١٢٥٨	هولاكو يستولى على بغداد ونهاية الدولة العباسية
١٧٥٧	استيلاء الوهابيين على الأحساء
١٨٠٣ — ١٨٠٤	استيلاء الوهابين على مكة والمدينة
١٨٤٣	تأسيس السنوسية فى طرابلس الغرب
١٨٤٤	ظهور البابيـــة
١٨٥٠	الفتك بأتباع الباب
١٨٧٠	ظهور المهدى فى السودان
١٨٨٨	المهديون يخضعون مقاطعة خط الاستواء
١٨٩٦	كتشنر يقضى على المهديين فى أم درمان



فهرس لأهم موضوعات الكتاب

صفحة



دار المعارف لمصر

تقدم

لجمهور القراء ولجميع الأسر

مشروعاً حيوياً جديداً

فيه نهضة فكرية وفيه حياة راقية

مكتبات المنازل

